دار ابن لقمان

مسرحية في ثلاثة فصول وسبعة مشاهد

تأليف

علي أحمد باكثير

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُها بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُم شُهَدَاءَ وَاللهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾.

(قرآن كريم)

أشخاص المسرحية

(حسب ترتيب ظهورهم على المسرح)

أحمد : فلاح شاب من أشمون .
ناعسة : ابنة شجر الدر بالتبنى . ابنة عم أحمد
شجر الدر : زوجة الملك الصالح أيوب
جمال الدين : الطواشى محسن
أقطاى : فارس الدين من كبار أمراء المماليك
أيبك : عز الدين من كبار أمراء المماليك
السلطان : الملك الصالح أيوب
فخر الدين : ابن شيخ الشيوخ قائد العساكر
مرجريت : زوجة لويس التاسع
بياتريس : أخت مرجريت وزوجة الكونت أنجو شقيق الملك
ﭽان : زوجة الكونت بواتييه شقيق الملك
لويس : لويس التاسع ملك فرنسا
دارتوا : الشقيق الأصغر للملك
بواتييه : شقيق الملك
أنجو : شقيق الملك
جوهر : مملوك فخر الدين ابن شيخ الشيوخ
الرسول : من رجال توران شاه

الفصـل الأول

المشـهد الأول

بهو متوسط فى القصر السلطانى بأشموم طناح (**أشمون الرمان**) .

أريكة فخمة فى صدر المسرح لجلوس السلطان .

وأمامها من يمين وشمال أريكتان مستطيلتان دونها فى الارتفاع .

للبهو ثلاثة أبواب : الأول فى الطرف الأيمن من صدر المسرح ويؤدى إلى جناح السلطان .

والثانى على يمين المسرح ويؤدى إلى جناح الحريم .

والثالث فى أدنى يسار المسرح ويؤدى إلى جناح الرجال وفى أقصاه شباك كبير .

(الوقت قبيل الزوال)

(يرفع الستار عن أحمد وناعسة واقفين فى الجانب الأيسر من المسرح يتناجيان بصوت خافض بجوار الباب الثالث) .

أحمد : وكيف حال مولانا السلطان يا ناعسة ؟

ناعسة : بحاله يا أحمد .

أحمد : ألم يفد شيئا من هواء مدينتنا ؟ العادة أن صحته تتحسن

كلما استجم هنا فى أشمون .

ناعسة : وهل جاء هذه المرة للاستشفاء أو الاستجمام؟ إنما تجشم المجيء إلى هنا وهو فى أشد حالات المرض ليكون على كثب من خط القتال .

أحمد : صدقت . لن أنسى أبدا منظره الرائع يوم قدم المدينة محمولا على محفة ، كان كأنه أسد جريح محمول فى قفص .

ناعسة : لو رأيته أمس يا أحمد حين بلغه نزول عساكر الفرنج فى دمياط كيف يتقلى على فراشه لتقطع قلبك رثاء له . كان يصيح بصوت مكظوم : يا رب ، هب لى يوما واحدا أقاتل فيه أعداءك ثم أموت .

أحمد : بل شفاه الله وعافاه وبارك للمسلمين فى حياته حتى يشهد يوم النصر .

ناعسة : آمين يا رب ! أنت القادر على كل شيء .

أحمد : (**بعد صمت يسير**) هل لك الآن أن توصلى هدية أمى إلى ستنا شجر الدر؟

ناعسة : ألا تحب أن تراها وتسلم عليها؟ انتظرِ سأدعوها لتسلمها الهدية بنفسك (**تنطلق خارجة من الباب الأول**) .

أحمد : (**يتبعها بصره ويتنهد**) آه إنها تزداد كل يوم جمالا وفتنة . من ذا يصدق أن هذه ابنة عمى عويس النحال؟ لكأنها أميرة من آل أيوب .

أحقا أنها ستكون يوما من نصيبى ؟ أخشى أن يطمع فيها أحد الأمراء فيأخذها منى ، آه لولا هذا الغزو اللعين

لاستنجزت مولاتها اليوم ما وعدتنى به . (**تدخل شجر الدر وخلفها ناعسة فيتقدم أحمد نحوها فى إجلال**) .

شجر الدر : أهلا بك يا أحمد كيف حالك ؟

أحمد : (**يقبل يدها فى احترام**) الحمد لله يا مولاتى .

شجر الدر : وكيف حال أم أحمد ؟

أحمد : أم أحمد تبوس يديك يا مولاتى وتدعو لك فى كل صلاة (**يقدم إليها القصعة التى فى يده**) وترجوك أن تقبلى هذا .

شجر الدر : ما هذا ؟ (**تتناول القصعة**) .

أحمد : هدية على قدرها .. قليل من عسل أشمون من أول قطفة .

شجر الدر : هذا العسل الذى يحبه السلطان ، (**تناول القصعة لناعسة**) ادخلى به يا ناعسة .

(**تخرج ناعسة**) .

أحمد : وهى تشكرك يا مولاتى شكرا جزيلا على هداياك وألطافك .

شجر الدر : قل لها إن ذلك قليل فى حقها فهى التى أعطتنى ناعسة .

أحمد : أبقاك الله يا مولاتى . أنت صاحبة الفضل إذ ربيت هذه اليتيمة فترعرعت فى ظل نعمتك .

شجر الدر : إنى اعتبرها كابنتى يا أحمد .. ابنتى الوحيدة ، فإن قدر لك يوما أن تتزوجها فتذكر دائما أنها ابنة شجر الدر .

أحمد : هل لى حقا يا مولاتى أن أطمع فى هذا الشرف ؟

شجر الدر : أنا عند وعدى لك يا بنى . سأزوجها لك كما وعدتك ولكن بعد أن تنكشف عنا هذه الغمة التى نحن فيها .

أحمد : شكرا يا مولاتى. ستنجلى هذه الغمة إن شاء الله ويطرد هؤلاء الغزاة كما طردوا من قبل.

شجر الدر : (**تتمتم**) الله يفعل ما يشاء (**كأنها تتذكر شيئا**) خبرنى يا أحمد أصحيح ما بلغنى أن القائد فخر الدين ابن شيخ الشيوخ استدعاك ذات يوم إلى داره قبل سفره بالعساكر إلى دمياط؟

أحمد : (**بعد تردد**) نعم يا مولاتى هذا صحيح.

شجر الدر : ترى لأى شىء دعاك؟

أحمد : كلفنى يا مولاتى أن أدعو فتيان هذه الناحية كلها من أول البحر الصغير إلى آخره ليكونوا على أهبة لقتال العدو، وأعطانى أسلحة لتوزيعها عليهم.

شجر الدر : إذن فقد كان هذا سبب انقطاعك عنا طوال هذين الشهرين؟

أحمد : نعم يا مولاتى.

شجر الدر : لله در فخر الدين، يريد أن يقاتل الفرنج بطوب الأرض.

أحمد : (**فى توسل**) لكنه أوصانى يا مولاتى بكتمان هذا السر.

شجر الدر : لا تخف. أنا أعرف ماذا يريد ولن أبوح بسره لأحد.

(تسمع من الخارج حمحمة خيول وقعقعة سلاح وضوضاء مختلطة).

شجر الدر : (**مرتاعة**) وى! ما هذا؟ (**تنطلق إلى الشباك فى الجانب الأيسر لتتطلع منه وتدخل ناعسة مرتاعة وتتبادل النظر مع أحمد ثم يتقدمان إلى حيث تقف شجر الدر. تلتفت**

شجر الدر إلى أحمد) : انزل يا أحمد فادع لى الطواشى جمال الدين. انطلق.

أحمد : حالا يا مولاتى.

(يدخل الطواشى جمال الدين من الباب الثالث فيرتد أحمد)

شجر الدر : ما هذا يا جمال الدين؟ ماذا حدث؟

جمال الدين : أمراء المماليك يا مولاتى رجعوا بالعسكر من دمياط.

شجر الدر : (**فى دهش وارتياع**) رجعوا بالعسكر؟؟

جمال الدين : نعم.

شجر الدر : بالعسكر كله؟

جمال الدين : نعم. بعض وصلوا وبعض فى الطريق.

شجر الدر : والقائد فخر الدين معهم؟

جمال الدين : لا يا مولاتى.

شجر الدر : أين هو؟

جمال الدين : لا أدرى يا مولاتى. إنهم ينتظرون الإذن للدخول على السلطان ليشرحوا له كل شىء.

شجر الدر : من ذا على رأسهم؟

جمال الدين : فارس الدين أقطاى وعز الدين أيبك.

شجر الدر : ائذن لهما وحدهما وانتظروا فى هذا البهو.

جمال الدين : سمعا يا مولاتى. (**يخرج**).

أحمد : ائذنى لى يا مولاتى أنصرف.

شجر الدر : بل ابق معنا يا أحمد. لعلنا نحتاج إليك.

(تخرج من الباب الأول) .

أحمد : أحسبني يا ناعسة لا مكان لى هنا .

ناعسة : أمرتك بالبقاء وعليك أن تطيع الأمر .

أحمد : ترى ماذا حدث للأمير فخر الدين؟ كيف رجعوا من دونه ؟

شجر الدر : (**تظهر عند الباب**) تعالى يا ناعسة وأنت يا أحمد .

(يغيب الثلاثة) .

(يدخل الطواشى جمال الدين وخلفه فارس الدين أقطاى وعز الدين أيبك) .

أقطاى : أين مولانا السلطان ؟ إن كان عاجزا عن الحركة فلندخل إليه فى حجرته .

جمال الدين : أمرتنا السيدة شجر الدر أن ننتظر هنا .

أقطاى : الأمر خطير لا يحتمل الانتظار .

أيبك : حلمك قليلا يا فارس الدين .

أقطاى : (**غاضبا**) يا عز الدين دعني وشأني . أنا أعرف سبيلى .

(يدخل السلطان متحاملا على ذراعى أحمد وناعسة وقد سترت نصف وجهها بالخمار فلا يبدو غير عينيها فيقف الأمراء الثلاثة صامتين كأنما على رءوسهم الطير من هيبة السلطان . يدنو السلطان من أريكته فيسحب يديه من ذراعى أحمد وناعسة كأنه يريد أن يشعر من حوله بما بقى من قوته فيجلس على الأريكة دون عون . ويتقهقر أحمد وناعسة حتى يقفا خلف الأريكة من الجانبين : أحمد عن

اليمين وناعسة عن الشمال).

السلطان : (**يدير عينيه الحادتين فى وجوه القوم دون كلام كأنما تجمع فى عينيه كل ما بقى له من حياة وقد جمدت عضلات وجهه ما خلا شفتيه المرتعشتين ثم ينطق فجأة بصوت عميق كأنما ينبعث من أعماق قلبه**) : ماذا جاء بكم يا أمراء الدولة ؟ هل فرغتم من جهاد العدو ؟

الثلاثة : (**تلجمهم الهيبة فلا ينطقون**) ...؟

السلطان : (**يعلو صوته غضبا**) ما بالكم لا تنطقون ؟ ألجمكم عار الهزيمة ؟

أقطاى : (**يتشجع**) كلا يا خوند، ما انهزمنا ولكنا انسحبنا مرغمين .

السلطان : ماذا أرغمكم على الانسحاب ؟

أقطاى : فخر الدين ابن شيخ الشيوخ أمرنا بذلك فأطعناه .

السلطان : فخر الدين ؟ كيف ؟ تكلم أنت يا عز الدين ، اشرح لى جلية الأمر .

أيبك : كنا فى البر الغربى حين نزل الفرنج من مراكبهم على طول خط الساحل .

السلطان : أعلم أنكم عجزتم عن منعهم من النزول ؟

أيبك : لأن الساحل غير محصن يا خوند .

السلطان : أعرف . أعرف . ماذا حدث بعد ذلك ؟

أيبك : التحمنا مع العدو فى معركة غير فاصلة نهار أمس ، فلما أمسى الليل انسحب بنا فخر الدين من البر الغربى إلى البر

الشرق الذى فيه مدينة دمياط .

السلطان : ثم ماذا ؟

أقطاى : كان الواجب يا خوند أن يبقى فى البر الغربى ليصد العدو عن دمياط ، لا أن يفسح لهم الطريق للوثوب على المدينة . وقد نصحناه بذلك فأعرض عنا واعتمد كل الاعتماد على جموع الحراشفة من العامة والعربان ، فلما رأينا ذلك منه قررنا أن نرجع إليك لنرى ماذا تأمر .

السلطان : وأين هو فخر الدين ؟

أقطاى : لا ندرى أين هو . لقد تركناه وراءنا حين تركنا وشغل نفسه بترتيب جماعات الحراشفة قاصدا بزعمه أن يجعل لهم من دوننا فخر النصر .

(يدخل فخر الدين) .

فخر الدين : السلام على مولانا السلطان .

السلطان : لا سلام عندى لقائد فر من الميدان .

فخر الدين : **(يقف بجانب الثلاثة صامتا لا يجيب)** ...؟

السلطان : **(يعلو صوته غضبا)** ألا تجيبنى يا فخر الدين ؟

فخر الدين : ماذا أقول يا مولاى ؟ هذه زلة لا مثيل لها فى تاريخ الحروب .

أقطاى : أنت الذى ارتكبتها يا قائد الجيش .

فخر الدين : أنا ؟

أقطاى : نعم . ألم تنسحب بالعساكر من البر الغربى لتتيح للعدو الوثوب على المدينة ؟

فخر الدين : لا حديث لى معك يا فارس الدين .

أقطاى : يجب أن تجيب على سؤالى .

فخر الدين : القائد هو الذى يسأل والجندى هو الذى يجيب .

أقطاى : سلنى إذن وأنا أجيبك .

فخر الدين : هذا كان فى الميدان هناك يا أقطاى ، أما بين يدى مولانا السلطان فله أن يسأل وعلينا أن نجيب .

السلطان : (محتدا) كفى جدالا أمامى . لا أريد الجدال . ويلكم كيف تركتم أهل دمياط يواجهون وحدهم جموع الفرنج ؟

فخر الدين : أهل دمياط لم يواجهوا جموع الفرنج يا مولاى . لقد راعهم انسحاب العسكر من عندهم فخرجوا من المدينة هاربين يسحبون على وجوههم طول الليل ولم يبق بها أحد .

السلطان : يا إلٰهى ماذا أسمع ، ماذا تقول يا فخر الدين؟

فخر الدين : ألم يخبرك هؤلاء بما حدث لأهل دمياط؟

أقطاى : ما حدثناه عن ذلك بعد وكل ما جرى كان بسببك .

السلطان : واعاراه ! لقد استطاعت دمياط أن تقاوم الفرنج فى حملتهم الأولى سنة كاملة ولم يكن فيها من الذخائر والأقوات والسلاح ثلث ما فيها اليوم . ويلكم أتركتم كل ما شحناها به من الأقوات والذخائر والآلات يسقط فى أيديهم عفوا صفوا ؟

فخر الدين : من حسن الحظ يا مولاى أن المتطوعين من العامة قد استطاعوا أن يشعلوا الحريق فى سوق دمياط الكبير حتى لا ينتفع العدو بما فيه .

السلطان : (**متهكما على المماليك**) الحراشفة ؟

فخر الدين : نعم .

السلطان : والعساكر المدججة بالسلاح لم تصنع شيئا ؟ ويلكم أيها الجبناء لم تقدروا أن تقفوا ساعة أمام الفرنج ؟

فخر الدين : ليتنا كنا جبناء يا مولاى السلطان ، إذن لربما كان لنا من جبننا شفيع أو عذير .

السلطان : فأى شيء أنتم ؟ خَونَة ؟

فخر الدين : الخائن يا مولاى يبتغى أجرا على خيانته . وأنا أعلم علم اليقين أن أحدا منا لم تلامس يده يد فرنجى قط .

السلطان : دعنى من ألغازك وأحاجيك . اشرح لى بصريح العبارة ما حدث .

أقطاى : لا غرو أن يحاجينا يا خوند فإنه شاعر .

فخر الدين : لا ينبغى يا مولاى أن نتجادل أمامك ، فلو أمرت فاختليت بى حتى تسمع ما عندى فى هدوء .

أقطاى : أتريد أن تطردنا من عند مولانا لتفترى له ما تشاء دون رقيب ولا حسيب ؟

أيبك : أجل نحن نحتج على هذا الطلب .

السلطان : اتركانى وحدى مع ابن شيخ الشيوخ وانتظرا أسفل حتى يأتيكما أمرى .

أيبك : سمعا يا خوند .

(يخرج أقطاى وأيبك خاسئين) .

السلطان : هل تريد الآخرين يخرجون ؟

فخر الدين : لا يا مولاى ليس عندى ما أخفيه عن أحد .

السلطان : هات إذن ما عندك .

فخر الدين : لما رأيت العدو يفوقنا عددا وعدة رأيت أن أعجم عودهم فى معركة صغيرة فوجدتهم أشداء مستكلبين على القتال فأشفقت أن التحمت معهم فى معركة فاصلة أن يدال لهم علينا فتسوء العاقبة . عندئذ قررت يا مولاى أن أنسحب بالعسكر إلى البر الشرق لأستدرج الفرنج بذلك لعبور الجسر خلفنا فآمر حينئذ بقطع الجسر فيحال بينهم وبين مراكبهم الراسية أمام البر الغربى فتنقطع عنهم الإمدادات ويكونون تحت رحمتنا .

السلطان : جميل جميل .

فخر الدين : وكنت قد عينت جماعات من المتطوعين من عامة الشعب والعربان ليرابطوا فى مكامن من البر الغربى حتى إذا عبر الفرنج إلينا قاموا هم بمهاجمة سفنهم الراسية هناك وإحراقها .

السلطان : بديع بديع .

فخر الدين : ورتبت الكنانيين مع فرقة من العسكر داخل المدينة ليقوموا بالدفاع عنها مع أهلها . أما بقية العسكر فقد رتبتهم ليرابطوا حول أسوار المدينة ليقاتلوا دونها وعلى الطرق المفضية إلى الجنوب ليمنعوا العدو من الانطلاق صوب القاهرة . هذا مجمل ما رسمته يا مولاى .

السلطان : خطة محكمة بارعة .

فخر الدين : وبينما أنا فى المدينة أتفقدها وأوزع من فيها من الكنانيين

والعسكر على حصونها وأبوابها إذ راعنى نبأ بأن أمراء المماليك قد انسحبوا بعساكرهم من مواقعهم راجعين إلى أشمون . فانطلقت مسرعا لأجد المواقع قد خلت منهم حقا ، فركبت أعدو خلفهم حتى أدركتهم فجعلت أناديهم ليرجعوا إلى حيث كانوا فلم يستمع لى أحد . فكررت راجعا إلى دمياط فما راعنى إلا أهلها قد خرجوا من ديارهم بنسائهم وأطفالهم فزعين هاربين . فلما سألتهم قالوا : كيف نبقى فى المدينة وقد خرج الكنانيون منها وانسحب العسكر . فالتمست الكنانيين حتى وجدتهم فأمرتهم بالرجوع إلى حيث كانوا فقالوا : ماذا نصنع فى المدينة وحدنا وقد طفق أهلها يخرجون منها ؟ قلت لا عليكم . عودوا إلى مواقعكم فقالوا والله لنمضين إلى السلطان لنشرح له ما حدث . وخشيت أن يشرح لك الأمراء المماليك غير الحق فأجهدت جوادى حتى وصلت الساعة إليك . فهذه جلية الأمر يا مولاى .

السلطان : الحمد لله إذ لم يخب ظنى فيك يا فخر الدين . ولكن هؤلاء الخونة لا بد من عقابهم .

فخر الدين : ليس هذا وقت العقاب يا مولاى وليس فى وسعك أن تعاقب جيشا بأكمله .

السلطان : لأعاقبن أمراءهم ..

فخر الدين : ولا هؤلاء فإنك لا تأمن أن تثور فتنة فى البلاد والعدو على الأبواب .

السلطان : (**ينظر إلى الطواشى جمال الدين**) ماذا ترى يا جمال الدين؟

جمال الدين : فخر الدين على حق يا خوند . سيثور لكل أمير أتباعه ثم لا ندرى ماذا تكون العاقبة .

السلطان : (**يلحظه فى ارتياب**) آه لو لم أكن قعيد البيت ! والله لئن قمت من علتى هذه لأستأصلن الخونة ولو كانوا الجيش كله .

فخر الدين : بل تعفو يومئذ يا مولاى وتصفح .

السلطان : كلا لا عفو عندى لمن أضاع بلاد الإسلام ، قم يا جمال الدين فمر بشنق الكنانيين .

فخر الدين : مولاى ليس الكنانيون بأعظم ذنبا من غيرهم .

السلطان : أعلم ذلك ولكن لا يخشى من عقابهم فتنة فليكونوا عبرة لغيرهم .

فخر الدين : ليس من العدل يا مولاى أن ....

السلطان : (**محتدا**) ويلك هذا حكم الله فيمن خان بلاد المسلمين ، أو ليس حكم الله عدلا يا فخر الدين؟

فخر الدين : لكن يا مولاى ....

السلطان : ويلك لا تراجعنى فى أمر أمرت ، انطلق يا جمال الدين إلى شيخ الإسلام فاستفته فيمن عصى أمر قائده فى ميدان الجهاد حتى عرض بلدا من بلاد المسلمين للوقوع فى أيدى العدو ثم نفذ الفتيا فى هؤلاء الكنانيين وأعلنها فى الناس .

جمال الدين : سمعا يا مولاى وطاعة (**يخرج**) .

السلطان : (**ينظر إلى فخر الدين مليا وفخر الدين واجم ثم يقول له فى رقة**) تعال ادن منى يا ابن شيخ الشيوخ (**يقترب منه فخر الدين باقيا فى وجومه**) واجد بعد على؟ خذ منى ترضية ما أعطيتها لأحد قبلك ولن أعطيها لأحد بعدك (**يشد بكلتا يديه عنق فخر الدين إليه فيقبل رأسه**) .

فخر الدين : أستغفر الله ، بل أنا الذى أقبل رأسك يا سلطان المسلمين يا خير ملوك بنى أيوب بعد صلاح الدين (**يقبل رأس السلطان**) .

السلطان : اجلس يا فخر الدين قريبا منى . هات ذلك المقعد (**يسحب فخر الدين المقعد فيجلس على يمين السلطان**).

السلطان : ناعسة ، انسحبى إلى مولاتك أنت وابن عمك .

ناعسة : سمعا يا مولاى (**تنسحب هى وأحمد**) .

السلطان : قد علمت يا فخر الدين أن هؤلاء المماليك يحسدونك على مكانتك عندى ويتحاملون عليك لأنك لست منهم فأرادوا أن يظهروك أمامى بمظهر العاجز الفاشل ولكن هيهات أن أنخدع بعملهم .

فخر الدين : الرأى يا مولاى أن تعزلنى عن القيادة وتوليها لواحد منهم.

السلطان : مكافأة لهم على الجرم الذى ارتكبوه؟

فخر الدين : لا يا مولاى بل لينبعثوا لقتال العدو فى صدق ونية .

السلطان : كلا لن أبلغهم ما يشتهون وليس فيهم من يساوى قلامة ظفرك (**يتنهد**) يا ضيعة المال الذى أنفقته فى شرائهم وتربيتهم . لقد اعتبرتهم كأبنائى وقدمتهم على غيرهم من

مماليك أبى وأغدقت عليهم الأموال والرتب فهذه عاقبة تربيتى لهم .

فخر الدين : خفض عليك يا مولاى فإن تربيتك لهم لم تذهب سدى فهم من أشجع الجنود وأصبرهم على القتال . وكل ما فى الأمر أنهم يتوجسون منى لما يشاع بينهم أننى أطمح إلى ولاية الأمر بعدك وإنى سأستغنى عن خدمتهم وأجند من عامة الشعب.

السلطان : تبا لهم أما علموا أننى عرضت هذا عليك فرفضت ؟

فخر الدين : بلى يا مولاى قد بلغهم ذلك فزاد فى مخاوفهم منى . إنهم لا يأمنون أن تراجعنى بعد فأقبل .

السلطان : إذن والله لأكتبن اليوم عهدى إليك ولتقبلنه وأنت راغم .

فخر الدين : قد بينت لك سابقا أن هذا ليس من الحكمة فى الوقت الحاضر .

السلطان : لكنى لن أعيش طويلا يا فخر الدين ولا أريد أن ألقى ربى قبل أن أصلح أمر هذه الأمة وأعيد لها نظام الانتخاب الذى سنّه الإسلام من قبل ، فلا يكون الحكم ملكا يتوارثه الأبناء عن الآباء فإن هذا الملك هو أساس ما حاق بالأمة من بلاء ، ولولاه لتوحدت البلاد من أقصى الصعيد إلى ديار بكر ولما استطاع أن يطمع فيها صليبى من الغرب أو تترى من الشرق .

فخر الدين : كل هذا حق يا مولاى ولكن ليس من حقك أن تخاطر بتنفيذه اليوم والعدو على الأبواب ، وأى انقسام بيننا سيكون فيه هلاك بلاد الإسلام وضياعها إلى الأبد ،

وما إخالك ترضى أن تتحمل هذه التبعة على عنقك .

السلطان : (**يجهش بالبكاء**) صدقت يا فخر الدين . لقد فاتنى الأوان . لو أراد الله بى خيرا لوفقنى إليه يوم دعوت أنت إلى هذا الرأى فكان جزاؤك منى الحبس والاعتقال . لقد كنت شجاعا نبيلا يومئذ إذ لم تتنصل من تبعة ما قمت به بل صارحتنى به فى السر وإن أنكرته فى العلانية . ولكن شهوة الحكم أعمتنى عن حقيقتك فعددتك طامعا فى ملكى وما كنت إلا مخلصا لبلادك وأمتك ودينك .

فخر الدين : هون عليك يا مولاى فحسبك مثوبة عند الله أن نويت اليوم ما لم ينوه ملك قبلك قط وما منعك من تنفيذه إلا حرصك على مصلحة المسلمين .

السلطان : إذن فسأكتب لك العهد فى السر لتحتفظ به عندك حتى تعلنه بعد زوال الخطر عن البلاد .

فخر الدين : ربما يتسرب النبأ إلى المماليك فيزيدهم حقدًا علىّ .

السلطان : كلا لن يعلم بأمره أحد غيرك ، عاهدنى يا فخر الدين على ذلك .

فخر الدين : عاهدتك يا مولاى .

السلطان : وعاهدنى أيضا ألا تتخلى عن قيادة العساكر أبدا حتى يجلو عن ديارنا هؤلاء الصليبيون . أما هؤلاء العصاة فاغلظ عليهم فإنهم لا يصلحون إلا بالشدة .

فخر الدين : مولاى دع الأمور تجرى فى أعنتها .

السلطان : كلا لا أدعك حتى تعاهدنى أن تبقى فى القيادة ولو قتلوك !

فخر الدين : عاهدتك يا مولاى .

السلطان : الآن اطمأن قلبى يا فخر الدين .

فخر الدين : ولكن لى شرطا أشترطه عليك .

السلطان : ما هو ؟

فخر الدين : إنى أريد أن أسترضيهم عنى . فأخبرهم أننى تحملت عنهم تبعة ما حدث فى دمياط وسأعلن أنا فى الناس أنها كانت زلة منى وأنى أنا المسئول عنها وحدى .

السلطان : لكن لا ينبغى أن يشنع الناس عليك وأنت برىء .

فخر الدين : لا بأس يا مولاى إن فى ذلك مصلحة لنا عند العدو .

السلطان : ماذا تعنى ؟

فخر الدين : أهون علينا عند العدو أن يشاع أن القائد هو الذى انسحب بالجيش من أن يقال أن الجيش كله هو الذى عصى قائده ففر من الميدان .

السلطان : بوركت يا فخر الدين . لك عندى ما طلبت .

(يدخل الطواشى جمال الدين) .

السلطان : ماذا وراءك ؟ هل نفذت أمرى فى الكنانيين ؟

جمال الدين : نعم يا مولاى . أفتى شيخ الإسلام بالقتل فأمرت بشنقهم .

السلطان : أحسنت . ادع لى الآن هذين الشقيين أقطاى وأيبك .

جمال الدين : سمعا يا مولاى (**يخرج**) .

السلطان : (**يلحظ التأثر فى وجه فخر الدين**) لا تبتئس يا فخر الدين . فى القصاص حياة .

فخر الدين : لك يا مولاى الرأى الأعلى .

(يعود الطواشي ومعه أقطاى وأيبك) .

السلطان : يا أعداء أنفسهم ، والله لولا شفاعة فخر الدين لكم وتحمله التبعة عنكم لأمرت بشنقكم جميعا مثل الكنانيين ، فإياكم إياكم أن تعودوا لمثلها .

فخر الدين : قد عفا مولانا السلطان عنا جميعا . وسأعلن فى الناس أنها كانت زلة منى وأننى أنا المسئول عنها وحدى ، فلينس كل منا ما كان ولنقف لعدونا وقفة رجل واحد .

السلطان : أجل عليكم أن تمحوا عن أنفسكم عار دمياط .

أقطاى : ومن يكون قائدنا يا خوند ؟

السلطان : قطع الله لسانك ! من يكون قائدكم إلا الأمير فخر الدين ؟ وهل عندنا قائد غيره ؟

أيبك : يا مولانا ....

السلطان : (**محتدا**) لا اعتراض ولا كلام ، والله الذى لا إلـٰه إلا هو لئن خرجتم على طاعته مرة أخرى بحق أو بباطل لأفعلن بكم ما فعلت بالكنانيين . (**تدخل ناعسة حاملة قدحا فتناوله للسلطان ويظهر أحمد على الباب**) .

ناعسة : دواؤك يا مولاى قد حل ميعاده .

السلطان : (**يتنهد ثم يشرب ما فى القدح**) قد حل إذن ميعاد صلاة الظهر .

ناعسة : قد جهزنا وضوءك يا مولاى .

السلطان : أين ابن عمك (**تومئ ناعسة لأحمد فيحضر**) انتظرونى حتى أصلى الظهر (**يعتمد على ذراعى أحمد**

وناعسة ويتوجه صوب الباب حتى يخرج).

أقطاى : (**فى ثورة مكظومة**) اليوم يشنق الكنانيين وغدا يشنقنا .

أيبك : قد عفا عنا يا أقطاى .

أقطاى : عفا عنا ولم يبرئنا . صدق فخر الدين ولم يصدقنا .

فخر الدين : إنى سأعلن فى الناس أننى أنا المسئول عن تلك الزلة وحدى .

أقطاى : لكنه هو لن يغفرها لنا أبدا وسينفذ فينا فتوى شيخ الإسلام ذات يوم كما نفذها فى الكنانيين .

فخر الدين : كلا يا فارس الدين لن يفعل ذلك أبدا .

أقطاى : أنت لن يمسك بسوء لأنك أثير عنده ، أما نحن ..

فخر الدين : خذوا عهدا منى لئن أراد بكم سوءا لأكونن معكم عليه .

أيبك : حقا يا فخر الدين ؟

فخر الدين : وحرمة المصحف الشريف .

أقطاى : (**لفخر الدين**) ما دمت هكذا معنا قلبا وقالبا فلم لا نريح أنفسنا منه اليوم ونريحه هو من علته وآلامه ؟ إننا لا نستطيع أن نقاتل العدو ونحن مهددون بالقتل فى كل لحظة .

(**ينظر بعضهم إلى بعض فى وجوم**) .

أيبك : ماذا ترى يا فخر الدين ؟

فخر الدين : إن قتلنا سلطاننا أطمعنا الفرنج فينا فلن تقوم لنا قائمة . ولكن اصبروا عليه فهو على شفا وإنه لهامة اليوم أو غد فإن مات فقد كفيتم أمره وإلا فهو بين أيديكم .

جمال الدين : لقد أشار عليكم فخر الدين بالرأى الصائب .

أقطاى : هذا إن كان فخر الدين صادقا فيما قال .

فخر الدين : قد حلفت بحرمة المصحف الشريف يا أقطاى فماذا تريد منى أن أصنع بعد لكى تصدقنى؟ لماذا لا تثق بى كما أثق بك؟

أقطاى : لا أستطيع أن أثق برجل يطمع فى الملك بعد السلطان .

فخر الدين : إن صح ما تقول كان ذلك أحرى أن تثق بى كما أشرت به عليكم .

أقطاى : لا تحاول أن تخدعنا يا فخر الدين فإنا نعلم أنه قد عرض عليك ولاية الأمر من بعده .

فخر الدين : ولا تعلمون أننى رفضت؟

أقطاى : إنما رفضت لعلمك أننا لا نقبل سلطانا من غير آل أيوب .

فخر الدين : ليكن السبب ما يكون فحسبكم أننى رفضت .

أقطاى : إنك تجند عامة الشعب لتضربنا بهم غدا إذا أبينا أن نقبل ولايتك .

فخر الدين : لقد ذهب بك سوء الظن إلى مدى بعيد .

أقطاى : ليس هذا ظنى وحدى بل ظن الجميع . يا عز الدين لماذا لا تتكلم؟

أيبك : أجل يا فخر الدين هذا ما يظنه الجميع بك .

جمال الدين : هذا صحيح .

فخر الدين : ويحكم يا قوم . الفرنج يغزوننا بجيوش تفوق عساكرنا عددا وعدة ليقهروا قلعة الإسلام الكبرى فى مصر فتسقط قلاعه الأخرى فى أيديهم قلعة بعد قلعة ثم تنكرون علىَّ أن أستعين بالمطوعة من عامة الشعب ليكونوا ردءا لكم ويدافعوا عن

بلادهم ودينهم كما تدافعون ؟

أقطاى : نحن جنود الدولة لا نقبل أن تسوى بيننا وبين هؤلاء الحراشفة .

فخر الدين : هؤلاء الذين تسميهم حراشفة هم أهل البلاد وقد خرجوا يجاهدون فى سبيل الله دفاعا عن وطنهم ودينهم محتسبين متطوعين لا يأخذون رزقا من السلطان ولا يبتغون أجرا منه ولا يطمعون فى منصب أو جاه . أفتبغون أن أغمط فضلهم وهم يعاونوننا فى القيام بواجبنا الذى نأكل أرزاقنا من أموالهم عليه ؟

جمال الدين : صه ها هو ذا السلطان قد عاد .

(يدخل السلطان فيسود بينهم الصمت) .

السلطان : لقد وقع المحذور فعلينا الآن أن نواجهه بما بقى عندنا من إخلاص وأمانة لهذه الأمة التى نعيش فى بلادها ولهذا الدين الذى أكرمنا الله بالانتساب إليه . فماذا عندكم ؟

فخر الدين : أرى قبل كل شىء يا مولاى أن تُرسل كتب إلى العاصمة وإلى سائر المدن الكبرى لاستنفار الناس للجهاد فى سبيل الله لدفع الخطر العظيم .

السلطان : هذا واجب . أبلغ كاتب الإنشاء يا جمال الدين أن يعد كُتُبا بليغة بهذا المعنى لتقرأ على المسلمين من منابر الجوامع وكتبا أخرى مناسبة للمقام لتقرأ على المسيحيين فى الكنائس .

جمال الدين : سمعا يا مولاى .

السلطان : وماذا بعد ؟

أقطاى : أرى يا خوند أن نعاود المسير إلى دمياط بعدد أكبر من عددنا الأول فما كان فى حسباننا أن الفرنج سيأتون بكل هذا العدد الضخم.

فخر الدين : هذا رأى لا أوافق عليه فالفرنج لا بد قد احتلوا مدينة دمياط وسيحصنونها فوق تحصينها الأول فلا سبيل إلى غزوها. ولكن ننتظر حتى يخرجوا منها فإن هدفهم ليس دمياط بل القاهرة. وحينئذ نقاتلهم ..فى العراء على حد بيننا وبينهم سواء. وأرى كذلك أن ينتقل السلطان إلى المنصورة فنحصنها ونجعلها خط الدفاع الأول.

أقطاى : كلا لا نرضى أبدا أن ننتظر حتى يهاجمونا هنا فى أشمون أو فى المنصورة، هذا جبن وتخاذل.

فخر الدين : أنا أعلم أنكم شجعان أشاوس ولكن الشجاعة وحدها لا تغنى شيئا وهذا الشاعر أبو الطيب يقول :

الرأى قبل شجاعة الشجعان
هو أول وهى المحل الثانى

أقطاى : (فى لهجة ذات معنى) ما للشعراء والحرب ؟ إن للشعر قوما وللحرب آخرين !

فخر الدين : من الشعراء يا أقطاى من يعرف الحرب خيرا منك.

أقطاى : مثل من ؟

السلطان : (فى ضيق) كفى جدالا يا أقطاى. دعه يكمل حديثه.

فخر الدين : كانت دمياط فى أيدينا وكنا خليقين أن نكبدهم منها خسائر ولكنها صارت لهم اليوم فليس لنا أن نتيح لهم الفرصة

ليستظهروا علينا بحصونهم ونحن مكشوفون فى العراء. ولكن علينا أن نستدرجهم حتى يخرجوا منها وسيخرجون لا محالة فنوقع بهم ويكون لنا فى المنصورة مثل ما كان لنا فى دمياط قبل سقوطها فى أيديهم.

أيبك : ولماذا لا نختار بلدا أقرب إلى دمياط من المنصورة حتى لا ندعهم يتوغلون فى أرضنا؟

فخر الدين : لو كنت تعرف طبيعة الأرض يا عز الدين ما سألت هذا السؤال. إن المنصورة تقع فى طرف جزيرة دمياط التى يحصرها بحر النيل والبحر الصغير، فسوف نقيم التحصينات ونعد المعدات على الشط الشرقى من البحر الصغير فلا يستطيعون عبوره وينحصرون فى الجزيرة. وعلينا من الآن أن نكثر من صنع السفن والشوانى للوقوف دون سفنهم تجاه المنصورة فلا تستطيع تجاوزها كذلك.

السلطان : بوركت يا فخر الدين.. لكأنما ترى الأرض أمامك مصورة فى خريطة.

فخر الدين : إنى لأراها كذلك يا مولاى.

السلطان : فعلى بركة الله. استعدوا جميعا للرحيل إلى المنصورة وأعدوا لى حراقة تحملنى وأهلى. إنى لأتفاءل بهذه البلدة المنصورة فقد نزل بها والدى الكامل رحمه الله وبقى فيها حتى استرجع دمياط من أيديهم، انصرفوا إن شئتم.

(يخرج أقطاى وأيبك وجمال الدين).

فخر الدين : **(يدنو من السلطان فيقبل يده)** شكرا يا مولاى على

ما صنعت (**يمد يده من خلفه فيلقى بورقة فى يد أحمد فيخفيها أحمد فى جيبه**) .

السلطان : قد أوفيت أنا بعهدى فأوف أنت بعهدك .

فخر الدين : إن شاء الله يا مولاى (**يخرج**) .

(**تدخل شجر الدر**) .

شجر الدر : (**فى حنان**) لقد أرهقوك اليوم يا سيدى . هلم استرح فى سريرك (**تساعده على النهوض**) .

السلطان : هل سمعت ما دار بيننا يا أم خليل؟

شجر الدر : نعم سمعت كل شىء .

السلطان : آه لو قمت من علتى هذه ! (**يمشى متحاملا بين أحمد وناعسة وتتبعهم شجر الدر**) .

شجر الدر : ستقوم يا سيدى منها بإذن الله .

(**يخرج الأربعة**) .

(**يعود أحمد وناعسة**) .

ناعسة : أرأيت يا أحمد؟ إن مولانا السلطان قد أحبك ووثق بك .

أحمد : لأنه يعزك يا ناعسة . لا يدعونى إلا يا ابن عم ناعسة .

ناعسة : (**تضحك**) وهو يعزنى لأنه يعز ستنا شجر الدر .

أحمد : أنت ابنة شجر الدر وأنا ابن عم ابنة شجر الدر . (**يتضاحكان**) والآن ائذنى لى أنصرف .

ناعسة : (**تأخذ بيده**) لا والله لا أدعك تنصرف حتى تشاركنى فى غدائى اليوم .

(**تظهر شجر الدر على الباب**) .

أحمد : أعفينى يا ابنة عمى .

شجر الدر : أطعها يا أحمد .. لا تكسر خاطرها من اليوم .

ناعسة : (**تبتسم**) تعال .. (**تمضى به نحو الباب الثانى فيخرجان**) .

(تمشى شجر الدر جيئة وذهابا فى البهو كأنها مستغرقة فى فكر عميق وتنظر بين حين وآخر إلى جهة الباب الثالث كأنها تتوقع مجىء قادم) (يدخل الطواشى جمال الدين فتومئ إليه فيدنو منها) .

شجر الدر : (**بصوت خافض**) تبا لكما يا خونة ! كيف أردتم أن تقتلوا مولاكم ؟

جمال الدين : معاذ الله يا مولاتى .

شجر الدر : لو لم ينهكم فخر الدين لفعلتموها ، قد سمعت كل شىء .

جمال الدين : حاش لله يا مولاتى أن نقتل ولى نعمتنا ، ولكنا قلنا ذلك أمام فخر الدين ليعرف أننا نستطيع أن نقتله هو إذا أردنا . ولقد فطن الرجل لمرادنا فطفق يتودد إلينا خوفا على حياته .

شجر الدر : أما زلتم ساخطين على الرجل بعد كل ما أسدى إليكم من معروف ؟

جمال الدين : إنما يفعل كل هذا ريثما يتمكن من رقابنا يوم يخلف مولانا السلطان على العرش فلا يبقىَ منا على أحد .

شجر الدر : كلا يا جمال الدين . إن فخر الدين لشاعر رقيق الإحساس وليس بسفاك للدماء .

جمال الدين : إن لم يقتلنا يا مولاتى فربما يوقع بنا ما هو شر من القتل ؟

شجر الدر : ماذا تعنى ؟

جمال الدين : معذرة يا مولاى ، ألسنا جميعا من مماليك السلطان ؟ فما يمنعه أن يبيعنا كبيرنا وصغيرنا فى أسواق الرقيق ؟

شجر الدر : لا تنس ويلك أن مولاى السلطان قد أعتقنى فأنا زوجته وأم ولده خليل .

جمال الدين : أنا لا أعنيك يا مولاتى وإنما أعنى جماعتنا من المماليك البحرية . ونحن شيعتك وعبيد إحسانك ، بك نعتز وعليك نعتمد وليس لنا سواك .

شجر الدر : (تتنهد) وأنا أيضا ليس لى بعد السلطان سواكم .

جمال الدين : فلنحزم الأمر يا مولاتى من اليوم قبل أن يجرى للسلطان شيء فنضيع .

شجر الدر : إن السلطان قد أوصانى أن أكتم موته إذا مات خشية أن يستكلب الفرنج علينا إذا سمعوا بموته . وقد كتب لى عشرة آلاف إمضاء على بياض لأستعملها فى الأوامر والمراسيم حتى لا يفطن أحد إلى موته . ولن يعرف السر غيرى وغيرك وغير الطبيب أبى خليفة .

جمال الدين : هذا تدبير حكيم . ولكن يجب أن نستقدم ابنه توران شاه من حصن كيفا ليتولى الأمر بعده فنسد الطريق على كل طامع .

شجر الدر : لكن السلطان لا يريد توران شاه ولا يكره أحدا فى الدنيا مثله .

جمال الدين : حين يموت السلطان لا يبقى له أمر ولا نهى . ولن نبعث إلى

توران شاه إلا بعد أن يموت أبوه . وحيث إننا سنخفى موته عن كل أحد فسنعلن فى الناس أن السلطان قد رسم لابنه توران شاه بالولاية من بعده وأنه يأمرهم أن يبايعوه على ذلك فيسمع الجميع ويطيعون ، ولن يجرؤ فخر الدين ولا غيره حينئذ أن يعارض .

شجر الدر : ألا تخشون من توران شاه فإنه أهوج سيئ السيرة؟

جمال الدين : إنه ابن مولانا على كل حال ، وسيعتمد علينا ، ويرعى حقوقنا ، ولا شأن لنا بطيشه أو هوجه فضرر ذلك واقع عليه .

شجر الدر : (تتنهد) آه ليت خليلا ابنى عاش حتى اليوم .

جمال الدين : إذن لوضعناه فوق رءوسنا ولما التمسنا سواه . ولكن لا تبتئسى يا مولاتى فسيكون توران شاه مطيعا لك كابنك فإنه لن ينسى أنك ربيته فى صغره .

شجر الدر : لكنه فارقنا منذ زمان فلا أدرى ماذا يكون شعوره نحوى اليوم .

جمال الدين : ثقى يا مولاتى أن ولاءنا سيكون دائما لك . فإن لم يكن كما تحبين أطعنا أمرك فيه .

شجر الدر : خير يا جمال الدين . اذهب لشأنك الآن واكتم هذا الحديث .

جمال الدين : اطمئنى . (يخرج) .

شجر الدر : (تتوجه نحو الباب الأول) لعله استيقظ .

(تخرج) . (**يدخل أحمد وناعسة**) .

ناعسة : (**تشيعه إلى الباب**) متى تعود إلينا يا أحمد ؟

أحمد : قريبا إن شاء الله .

ناعسة : سلم لى على خالتى أم أحمد .

(**تدخل شجر الدر**) .

شجر الدر : إلى أين يا أحمد؟

أحمد : سأنصرف يا مولاتى فقد أطلت المكث .

شجر الدر : (**بلهجة ذات معنى**) إن ذهبت إلى الأمير فخر الدين قل له بينك وبينه : شجر الدر تسلم عليك وتقول لك خذ حذرك من أمراء المماليك .

أحمد : سأفعل يا مولاتى .. أنا الليلة ذاهب إليه (**يتوجه نحو الباب للخروج**) .

شجر الدر : (**تحرك رأسها فى رضى**) مع السلامة .

(**ستار**)

المشـهد الثانى

المنظر : بهو واسع فى قصر السلطان بدمياط الذى نزل به الملك لويس التاسع لما احتل جنوده المدينة.

فى أقصى اليمين باب يؤدى إلى داخل القصر وفى أدناه شباك يطل على فناء القصر. وفى أدنى اليسار باب يؤدى إلى خارج القصر وإلى فنائه كذلك.

كرسيان فخمان فى الصدر. وعلى الجانبين الأيمن والأيسر أريكتان وحولهما مقاعد مبطنة بالجلد الملون.

(**الوقت ضحى**).

يرفع الستار فنرى الملكة مرجريت وأختها جالستين على الأريكة اليمنى وهما تتناجيان :

مرجريت : أجل يا أختى كأنما ارتكبت ذنبا فى حقها إذ تزوجت الملك. بقيت تحقد علىّ حتى اليوم.إن لويس اختارنى أنا ولم يخترها هى كأنما كان فى وسعى أن أقول له : لا تتزوجنى وتزوج چان دى تولوز.

بياتريس : (**تنظر جهة الباب الأيسر**) صه! ها هى ذى قد أقبلت!

(**تقوم من الأريكة وتجلس على مقعد من المقاعد**)

(**تدخل چان**).

چان : بونچور يا صاحبة الجلالة .

مرجريت : بونچور كونتيس أنجو .

بياتريس : بونچور كونتيس بواتييه .

مرجريت : (**تشير إلى مقعد أمامها**) تفضلى شاركينا فى الحديث.. لا عمل لنا هنا غير الحديث .

چان : (**تجلس**) شكرا يا صاحبة الجلالة.. لكن أين زوجك الملك ؟

مرجريت : أين يوجد يوم الأحد إلا فى الكنيسة ، كنيسة مريم العذراء ؟

بياتريس : من أول ما طلع الصباح .

چان : لعله يدعو لنا بالنصر على هؤلاء الكفار .

مرجريت : ما أحسب الله يقبل دعاءه .

چان : لماذا يا صاحبة الجلالة ؟ إنه لتقى مؤمن ، إنه قديس .

مرجريت : (**فى سخرية**) لأنه يدعو فى كنيسة أصلها جامع للمسلمين .

چان : وأين تريدينه يصلى ؟ جميع الكنائس الموجودة هنا أصلها مساجد .

مرجريت : كلا بل توجد هنا كنائس أصلية .

چان : صحيح ؟

الأختان : نعم .

چان : عجبا هل يسمح هؤلاء الكفار بأن تقوم بينهم كنيسة للمسيح ؟

مرجريت : بعض الكنائس فى هذه البلاد أقدم من كنائس روما نفسها . ألا تعرفين هذه الحقيقة التاريخية ؟

چان : بلى أعرف هذه الحقيقة ، ولكنى كنت أظن تلك الكنائس قد هدمت جميعا أو حولت إلى مساجد .

مرجريت : المسلمون يا كونتس بواتييه أوسع أفقا منا وأكثر تسامحا مع من لا يدين بدينهم .

چان : هذا لأن دينهم دين باطل وديننا هو الدين الصحيح ، فلا يجوز أن نسمح للدين الباطل أن يقوم فى بلادنا . أما هم فيجب عليهم أن يسمحوا للدين الصحيح أن يقوم فى بلادهم .

مرجريت : لا لوم عليك فقد تلقنت هذا من رجال ديننا المتعصبين الذين ينعتون المسلمين بالكفر .

چان : ويحك يا صاحبة الجلالة ، أليس المسلمون كفارا ؟

مرجريت : الكافر يا كونتيس بواتييه هو من يكفر بالسيد المسيح ، وهؤلاء يؤمنون به ويقدسونه ، لا فرق بينه وبين نبيهم محمد .

چان : هذا هو عين الكفر ! كيف يسوون بين محمد والمسيح ؟

مرجريت : بل هذا غاية التسامح وسعة الأفق ، ويقابله عندنا التعصب والجهل والغباوة .

چان : (فى خبث) هل أفهم من هذا أن زوجك الملك غبى عندك ؟

مرجريت : كل من يحمل هذه العقلية فهو غبى .

چان : كان ينبغى يا صاحبة الجلالة لو تزوجت الإمبراطور فردريك الثانى .

مرجريت : (فى تجاهل) لماذا ؟

چان : لأنه يحب هؤلاء مثلك ويتشيع لهم ، حتى طرده البابا من كنيسة الرب .

مرجريت : هل قرأت ما كتبه الإمبراطور عنهم ؟

چان : لا ولا أود أن أقرأه .

مرجريت : إذن فليس لك أن تتهجمى عليه .

چان : وأنت قرأته يا صاحبة الجلالة ؟

مرجريت : نعم . هو الذى نوَّر عقلى وهدانى إلى الحقيقة قبل أن أشهدها بعينى .

چان : (**بعد صمت يسير وبلهجة ذات معنى**) إنى لأعجب لصاحبة الجلالة وعندها مشاغل كثيرة ، كيف تجد متسعا من الوقت للقراءة ؟

بياتريس : لا تنسى يا كونتيس بواتييه أن أختى كان عندها فى الأعوام الأولى من زواجها فراغ واسع .

چان : (**ساخرة**) صحيح .. كان الملك لا يلقاها إلا فى النادر ، وإذا أراد أن يواصلها تسلق إلى شرفتها تحت ستر الليل على طريقة العشاق المغامرين !

مرجريت : أمه هى التى كانت تضطره إلى ذلك . كانت بلانش تحول بينه وبينى كأننى لست زوجته .

بياتريس : حتى لقد هم والدى حين بلغه ذلك أن يجرد حملة لغزو

باريس وضمها إلى البروفانس.

چان : ترى ما الذى كان يدفع بلانش إلى ذلك وهى التى اختارتك بنفسها لابنها الملك؟

بياتريس : هذا واضح لا يحتاج إلى بيان. كانت تخشى أن تنافسها أختى فى السيطرة عليه.

مرجريت : مع أننى وحياة العذراء ما حدثت نفسى بشىء من ذلك، ولقد كنت يومئذ دون الثالثة عشرة.

چان : (**تعود إلى سخريتها الخفية**) إذن فقد كان لحماتك الفضل يا صاحبة الجلالة فى حشو رأسك الجميل بما فى بطون الكتب!

مرجريت : بل كان الفضل لوالدى يا كونتيس بواتييه، إذ كان يحثنى دائما على توسيع ثقافتى بالقراءة. إن والدى رجل مثقف!

چان : لا حق له. لست دميمة حتى تكملى نقصك بكثرة الاطلاع.

مرجريت : (**بلهجة ذات معنى**) يا عزيزتى كونتيس بواتييه إنك تعلمين أن كثيرات كن يطمعن أن يتزوجن الملك فوقع الاختيار علىَّ دون غيرى، ولا ينبغى لمن كانت تطمع فى الجلوس على عرش فرنسا أن تكون جاهلة!

چان : الجهل يا صاحبة الجلالة ولا الهرطقة.

مرجريت : هكذا أهل الجهل والتعصب دائما يتهمون المستنيرين بالكفر والهرطقة.

چان : يا صاحبة الجلالة إن فى كلامك هذا تعريضا بالبابا والملك.

بياتريس : ما هذا يا كونتيس بواتييه؟ أتريدين أن تحرفى فى كلام أختى؟

مرجريت : دعيها يا بياتريس تفسرّ كلامى كما تشاء فأنا لا أبالى.

چان : لا تبالين بزوجك الملك؟

مرجريت : (**محتدة**) لا أبالى بأحد! انقلى هذا إلى زوجى الملك إن شئت.

چان : (**ببرود**) كلا ليس من شيمتى النميمة، ثم إنك معذورة على كل حال.

مرجريت : ماذا تعنين؟

چان : ما كان للملك أن يغار من فارسك الشاعر چان دى بوا فيقصيه عنك.

بياتريس : كونتس بواتييه يجب أن تزنى كلامك!

چان : أنا قلت الحقيقة ولم أقصد أى سوء.

مرجريت : أجل أنا حامية دى بوا وراعيته، أقولها بملء فىَّ وعلى رءوس الأشهاد. لا تحسبينى أجبن عن الاعتراف بهذا الشرف.

چان : شرف؟!

بياتريس : أجل. سيخلدها فى شعره الجميل إلى الأبد. يا ليت شاعرا مثله يشيد بمحاسنى ويتغزل فىَّ!

چان : أنت أيضا! إنى لأحسدكن يا بنات البروفانس على جرأتكن.

مرجريت : نحن نشجع الشعراء العفيفين يا كونتس بواتييه، ولكن لا نأذن للعشاق الماجنين أن يتسللوا إلى مخادعنا مثل بنات تولوز!

چان : هذا غير صحيح يا صاحبة الجلالة . إن بنات تولوز متدينات لا يتخلفن عن الكنيسة كل أحد .

مرجريت : لكي يرحن ضمائرهن من الشعور بالإثم .

چان : ماذا تقولين ؟ كيف تعكسين الأمور ؟

مرجريت : أنا لا أعكس الأمور يا كونتس بواتييه . ما رأيك فى شقيق زوجك الكونت دارتوا ؟

چان : من أى ناحية ؟

مرجريت : من ناحية سلوكه .

چان : ماذا تريدين أن أقول فيه ؟

بياتريس : قولى إنه يقضى لياليه كلها فى السكر والعربدة .

چان : شاب غير متزوج يفعل ما يفعله الشباب .

مرجريت : فهو وحده دون أخويه الذى يحرص على شهود الكنيسة مع الملك !

چان : (مبهوتة) ...؟

مرجريت : ثم ما رأيك فى مدام دى بارى ذات التقوى والصلاح ؟

بياتريس : (ضاحكة) مدام دى بارى ! (**ترسم بيديها قرنين على رأسها**) .

چان : لا حق لكما ... هذه قد تابت !

مرجريت : تابت ؟

بياتريس : على يديك أنت ؟

چان : لا يجوز لنا أن نحاسبها على ماضيها .

بياتريس : حاضرها ألعن من ماضيها .

مرجريت : (**مشجعة**) لم يا أختى؟

بياتريس : ماضيها فى نفسها وحاضرها فى الأخريات!

مرجريت : (**مداعبة**) ومستقبلها يا بياتريس؟

بياتريس : مستقبلها فى الجحيم!

چان : يا للإفك والبهتان، لقد زرتها أنا فى بيتها فلم أر شيئا مما يشيعون. وجدت الذين عندها يقرءون معها فى الإنجيل .

بياتريس : (**فى دعابة**) حينما تصبحين من مريداتها المخلصات يا كونتس بواتييه ستطلعك على الأسرار. (**تلتفت إلى مرجريت**) لقد نبهتنى اليوم يا أختى إلى أمر هام. إن رأيت زوجى يتردد على الكنيسة فسأعرف أنه بدأ يخدعنى! (**تضحك الأختان وتتكلف چان مشاركتهما فى الضحك**).

چان : نكتة ظريفة يا كونتس أنجو (**بعد صمت يسير**) أرجو ألا تسيئى فهم قصدى يا صاحبة الجلالة، فقد قلت من الأول إن اللوم يقع فى هذا على الملك لا عليك. كلٌّ يعلم أن چان دى بوا فارس حسن السيرة مستقيم.

مرجريت : الحمد لله إذ شهدت له بذلك.

چان : أنا لا أشهد إلا بالحق. إنه مسيحى طيِّب. ولكن الذى لا يستساغ منك يا صاحبة الجلالة هو ما تبدينه من الاهتمام بهذا الأسير المسلم المحبوس فى الزنزانة تحت.

بياتريس : أحمد؟

چان : نعم.

مرجريت : وأى بأس فى ذلك يا كونتيس بواتييه؟

چان : زوجك الملك غيور كما تعلمين، فربما يظن ظنا.

مرجريت : ليظن ما يشاء.

چان : ليس من الحكمة أن تثيرى ريبته دون داع. إن كان لا بد من ذلك فليكن من وراء زوجك.

مرجريت : يجب أن تعلمى يا كونتيس بواتييه أنى لا أخفى شيئا عن زوجى، ولا أعمل شيئا من وراء ظهره.

چان : ترى أهو أيضا شاعر مثل چان دى بوا؟

مرجريت : لا تسخرى يا كونتيس بواتييه، إنى إنما أعطف عليه لأن له مأساة!

چان : يُحِب ابنة عمه الأسيرة فى قصر السلطان... ما أشبه زعمه هذا بقصص ألف ليلة وليلة!

مرجريت : نحن الآن فى بلاد ألف ليلة وليلة.

بياتريس : صحيح.. هذه بلاد ألف ليلة وليلة.

چان : لكن ما شأننا نحن به وبابنة عمه؟

مرجريت : إنه إنسان مثلنا يا كونتيس بواتييه.

چان : مثلنا؟

مرجريت : بل هو خير منا.. إنسان يحب ويتألم!

بياتريس : مسكين والله يستحق العطف.

چان : أنت أيضا يا كونتيس أنجو؟

بياتريس : صدقينى يا كونتيس بواتييه. إنه شاب مهذب جميل.

چان : جميل ؟

بياتريس : حقا جميل ، عيناه السوداوان الفياضتان بالحياة .

چان : هذا من الكحل الذى يستعملونه هنا كما سمعت .

مرجريت : من أين له الكحل وهو حبيس عندنا منذ ثلاثة أسابيع ؟

بياتريس : وشعره الأسود الفاحم ، إياك أن تقولى أيضا إنه يصبغ شعره .

چان : **(كأنها بدأت ترتاح لما تسمع من وصف الرجل)** لا .. ما أظن الصباغة تبقى ثلاثة أسابيع .

بياتريس : وفمه الحلو وشفتاه الغليظتان .

چان : **(فى اهتمام)** هيه وماذا بعد ؟

بياتريس : وجيده الأتلع الساحر بلون البرونز ! وصدره الذى يشبه صدر الأسد .

چان : **(فى لهجة ناعمة)** يا كونتس أنجو ! بحياة العذراء لا أستطيع أن أسمع أكثر من هذا ! **(تضحك ، وتضحك معها بياتريس بينما تختلس مرجريت النظر إلى چان فى اشمئزاز)**.

بياتريس : تحبين يا كونتس بواتييه أن تريه ؟

چان : لا بأس ! ليس عندنا الآن من رجالنا أحد . هلمى انزلى معنا يا صاحبة الجلالة لنتسلى بالحديث معه .

مرجريت : معذرة . أنا لا أحب أن أتسلى برجل منكوب .

چان : **(تضع يدها فى يد بياتريس)** هلمى بنا .. لعل صاحبة الجلالة لا تحب أن تنزل إليه إلا وحدها . **(تتوجه نحو الباب الأيسر)** .

بياتريس : (**تجذبها نحو الباب الأيمن**) من هنا ، دعينا ننزل من الدرج الخلفى حتى لا يرانا أحد . (**تتضاحكان وتخرجان من الباب الأيمن**) .

مرجريت : (**تتمتم**) يا لى منك ! (**تنهض إلى الشباك فتطلع**) أين أنت الآن يا فارسى الجميل؟ يا شاعرى المجيد ، لا تبتئس ، لقد جعلنى زوجى الغيور أزداد تعلقا بك وحنينا إليك . غبت عن عينى يا جان دى بوا ولكن نزلت فى قلبى ولن تخرج منه أبدا. ستبقى فى قلبى إلى الأبد . (**تخرج ورقة من بين ثيابها**) هذه قصيدتك الأخيرة أحتفظ بها بين سحرى ونحرى وأرتلها كالمزامير أو كنشيد الأناشيد .
(**تسمع وقع أقدام فتخفى الورقة بين ثيابها**)
(**يدخل الملك لويس من الباب الأيسر فينظر إليها فى ريبة**) .

مرجريت : رجعت يا سيدى من الكنيسة؟

لويس : نعم .. من ذا كان عندك هنا يا مرجريت؟

مرجريت : (**فى غيظ مكظوم**) چان يا سيدى .. چان دى بوا .

لويس : (**يحمر وجهه غضبا**) چان دى بوا ! ماذا جاء به؟ إنه مكلف بحراسة المخفر الأمامى للمدينة .. كيف حضر بغير إذن؟ كيف ترك واجبه الخطير؟ هذا الخائن !

مرجريت : إن دى بوا يا سيدى أكبر وأنبل من أن يخون واجبه .

لويس : ألم يحضر إلى هنا؟

مرجريت : لا يا سيدى .. لم يحضر .

لويس : لكنك قلت الساعة إنه كان هنا عندك .

مرجريت : لأنك كنت تستفهمني وفى ذهنك شيء واحد هو چان دى بوا .

لويس : كلا كلا .. ما كان فى ذهنى أحد .

مرجريت : لا تكذب يا سيدى فالله مطلع على سريرتك ، وأنت تقى متدين والدين ينهى عن الكذب .

لويس : (**يلين لهجته**) لا تؤاخذينى يا مرجريت إنى محب ، والمحب غيور .

مرجريت : لو كنت تحبنى حقا ما اتهمتنى .

لويس :حاشاى يا حبيبتى .

مرجريت : لا تكذب ثانية . هذا واضح فى عينيك .

لويس : (**يثور فى وجهها فجأة**) أجل أنا أتهمك ، ومن حقى أن أتهمك مادام هذا الشيطان اللعين يتردد عليك .

مرجريت : (**فى ثبات**) ما هو بشيطان ولا لعين وإنما هو فارس وشاعر .

لويس : (**بلهجة الواعظ الدينى**) الشيطان يا ابنة آدم كثيرا ما يظهر فى صورة رجل جميل !

مرجريت : انظر فى المرآة يا صاحب الجلالة لتعلم أنك أجمل منه .

لويس : إذن لماذا تخصينه بحبك وهواك ؟

مرجريت : إنما أنا أرعاه وأعطف عليه . أنا راعيته وحاميته جريا على العادة المتبعة .

لويس : هذه عادة من عمل الشيطان .

مرجريت : هذا تقليد شائع من تقاليد الفروسية ، ولم أتبعه أنا وحدى فهو موجود فى أسرتك .

لويس : كذبت . هاتان سِلفتاك چان وبياتريس لا أحد منهما تتبع هذا النهج الذميم .

مرجريت : أختى بياتريس لا تزال عروسا صغيرة . أما چان فزوجها دائما معها لا يشغل عنها بشيء .

لويس : وماذا يشغلنى أنا عنك ؟

مرجريت : أمك والكنيسة !

لويس : أمى والكنيسة ؟

مرجريت : أجل . حين كنت دون الحادية والعشرين كانت أمك تحول بينك وبينى حتى كنت تضطر إلى التسلق إلى حجرتى بالليل . . أنسيت ذلك ؟ فلما بلغت سن الرشد ولم يعد فى وسع أمك أن تتحكم فى علاقتنا الزوجية شغلت نفسك بالكنيسة عنى ، حتى هممت ذات يوم أن تخلع التاج وتتخذ إكليل الأكليروس كأنما أنت قسيس لا ملك .

لويس : أمن أجل هذا اتخذت لك خليلا دون سِلفتيك ؟

مرجريت : نعم . ولو أتيح لهما أن ترعيا مثل هذا الفارس الشاعر لما ترددتا فى قبول هذا الشرف .

لويس : شرف ؟ الخطيئة عندك شرف ؟

مرجريت : (**محتدة**) لا تقل الخطيئة من فضلك ! فإن ما بينى وبينها ما بين السماء والأرض .

لويس : أنا أعتبرها خطيئة ، والدين يعتبرها خطيئة .

مرجريت : إذن فما تقول فى جدة أمك إليانور داكويتين التى زفت إلى هنرى الثانى ملك إنجلترا ، فأبت إلا أن يتبعها شاعرها المختار برناردى فنتادورن إلى بلاطها هناك ؟

لويس : لا شأن لى بجدة أمى هذه ولا بشاعرها .

مرجريت : وما تقول فى أم أمك مارى دى شمبانيا التى اتخذت لها شاعرين مختارين لا واحدا : كريتيان دى تروى وأندريا كابلانوس ؟

لويس : ولا شأن لى بهذه كذلك .

مرجريت : إذن فما تقول فى أمك بلانش دى كاستى ؟ ألم تسمع بما بينها وبين شاعرها تيوبولد دى شمبانيا ؟

لويس : مرجريت !

مرجريت : أليس من حقى أنا مرجريت دى بروفانس التى أفوق أمهاتك هؤلاء أرومة وشرف محتد ، أن يكون لى شاعر يتغنى بمحاسنى وأسبغ عليه عطفى ورعايتى ؟

لويس : أنا لا أسمح لك يا مرجريت أن تتعرضى لوالدتى فهى أشرف منك !

مرجريت : لا تغضب يا صاحب الجلالة . أنا لم أتفوه فيها بكلمة سوء . أنا لم أقل ما يقول الناس عنها إنها تجاوزت مع شاعرها حدود الرعاية والحماية إلى شيء آخر !

لويس : (**غاضبا**) مرجريت !

مرجريت : (**ماضية دون مبالاة**) ولم أقل ما يقولون عنها أنها تواطأت معه على قتل أبيك لويس الثامن بالسم !

لويس : (**يكم فمها بيده**) اسكتى يا ملعونة !

مرجريت : الله يعلم وحده من هى التى تستحق هذا اللقب .

لويس : (**يفقد سيطرته على نفسه فيتهاوى على الأريكة وهو يزفر فى صعوبة ويتمتم**). وحرمة الصليب وكرامة السيد المسيح لأتخلصن من هذا الشيطان اللعين .

مرجريت : علام القسم بعد ؟ لقد أردت به ذلك حين وضعته فى ذلك المخفر البعيد ، عرضة لهجمات العامة والعربان الذين ينقضون على معسكراتك بالليل ويقتلون رجالك أو يتخطفونهم فيسوقونهم أسرى إلى القاهرة .

لويس : كلا لا يكفينى ذلك . لأقتلنه بيدى .

مرجريت : فى وسعك يا ملك فرنسا أن تفعل ذلك ، ولكن ثق أنك ستفقد حبى واحترامى إلى الأبد .

لويس : (**ينشج باكيا فى صوت كظيم وقد دفن وجهه بين يديه وهو يتمتم**) الملعونة ! قتلت أبى الملك الطيب ولوثت شرفه وشرفى من بعده . كل هذا من أجل نزوة بهيمية مع شاعر داعر من شعراء التروبادور ! ثم تخادع الله وتخادع الناس فتتمسح بالكنيسة وتتظاهر بالدين والتقوى وتقول لى : يالويس أهون علىّ أن أشهد مصرعك بعينى رأسى من أن ترتكب خطيئة ! هذا فراق بينى وبينك يا ملعونة يا ابنة قشتالة . لن ترينى ولن أراك . قسما بطهارة مريم العذراء لن أعود إلى فرنسا حتى يواريك التراب . واشقائى ! أنا أشقى الناس! أنا أشقى الناس !

مرجريت : (**تدنو منه مواسية**) سامحنى يا مولاى فيما سببت لك من ألم.

لويس : لا عليك... أنت إنما نكأت الجرح، ولكن هى التى جرحت.

مرجريت : (**تجفف دمعه بمنديلها**) ما كنت أعلم يا حبيبى أنك تنطوى على هذا الألم الدفين. كنت أظن أن قلبك قُدَّ من صخر فلا يحس ولا يتألم.

لويس : إنما أتجلد يا حبيبتى لأن منصبى يقتضى ذلك. ولأنى... ولأنى ما زلت أحبها يا مرجريت!

مرجريت : لا غرو يا سيدى فهى والدتك.

لويس : يا ليتها لم تكن كذلك. لقد جعلتنى أكره نفسى حتى لأتمنى كلما خُضت معركة من المعارك لو أقتل فيها فأستريح!

مرجريت : (**تربت على كتفه مواسية**) رفقا بنفسك يا سيدى... لا ينبغى أن تأسى إلى هذا الحد.

لويس : كيف لا يا مرجريت وقد جعلتنى أشعر بالدنس يجرى فى عروقى، ولا أدرى كيف أتطهر منه إلا أن يتولانى الله الذى طهر المسيح من رجس الشيطان.

مرجريت : (**تقبله فى حنان والدمع يترقرق فى عينيها**) سيتولاك الله يا لويس. سيتولاك الله.

لويس : آمين (**ينظر إليها فى اغتباط**) إنك لتحبيننى يا مرجريت.

مرجريت : الله يشهد أننى ما أحببت سواك.

لويس : فما يمنعك يا حبيبتى أن تجيبينى إلى ما أريد؟

مرجريت : ماذا تريد ؟

لويس : عديني أنك لن تقابليه بعد اليوم .

مرجريت : كلا لا أستطيع . إنك اتهمتني من قبل فى صلتى به ، فإن أجبتك اليوم إلى طلبك هذا فكأنني اعترفت بما اتهمتني به .

لويس : صدقيني يا مرجريت . أنا واثق من شرفك ، ولكنى لا أريد لأولادى أن يعانوا مثل ما عانيت .

مرجريت : لو كنت تثق بشرفى حقا ما قلت هذا .

لويس : (**يعود إلى غضبه الأول**) ولو كنت تحبينني حقا لما رفضت لى هذا الطلب .

مرجزيت : هذا طلب لا سبيل إليه .

لويس : إذن فسأعرف ماذا أفعل !

مرجريت : افعل ما بدا لك !

لويس : ما كان ينبغى أن آخذك معى فى هذه الحملة . هذه حملة مقدسة لا ينبغى أن يشترك فيها إلا من يؤمن برسالتها ويؤدى فيها واجبه على ما يرضى السيد المسيح .

مرجريت : لو صح ما تقول لما اشترك فيها أحد ممن جاءوا معك .

لويس : ماذا تعنين ؟

مرجريت : أتظن هؤلاء البارونات والكونتات انضموا إليك حبا فى المسيح ؟ إنما جاءوا طمعا فى المغانم والأسلاب . ها هم أولاء قد استحالوا إلى وحوش بشرية لا عمل لها إلا السكر والعربدة واختطاف النساء من القرى المجاورة ، وارتكاب ما يضج منه المسيح . (**يصمت لويس قليلا ويعتريه وجوم**)

(**يدخل الكونت دارتوا ويلحظ هذا الوجوم من الملك والملكة فيتراجع لينسحب**) .

دارتوا : معذرة يا سيدى .

لويس : (**يصيح به فى حدة**) ادخل يا روبير ، لى حديث معك .

دارتوا : (**يتقدم فى أدب**) عفوا يا سيدى إذ دخلت دون استئذان .

لويس : اجلس (**يجلس دارتوا**) اسمع يا روبير .

دارتوا : نعم يا سيدى .

لويس : يجب أن تنهنه من طيشك ومجونك . كلما عاتبت أحدا على شيء قال لى : كان الكونت دارتوا معنا . ويلك ألا تعرف أننا فى حملة مقدسة ؟

دارتوا : بلى يا سيدى ولكنا فى بلاد الكفار ، ولنا أن نصنع فيها ما نشاء ليس علينا جناح .

لويس : من قال لك ذلك ؟ إن الخطيئة هى الخطيئة سواء ارتكبتها هنا أو هناك .

دارتوا : لكنك يا سيدى قد أخذت عهدا من البابا أن يَجُبَّ خطايا جميع الذين يشتركون فى هذه الحملة .

لويس : يا جاهل .. الخطايا التي ارتكبتموها فى الماضى لا التى ترتكبونها أثناء الحملة . ويلكم ألا تعلمون أن هذه الخطايا تغضب الرب علينا فلا ينصرنا على أعدائنا ؟

دارتوا : لا تؤاخذنى يا سيدى إن قلت لك إنك أنت المسئول عن هذا كله . حبستنا خمسة شهور فى دمياط لا نعمل شيئا

حتى كدنا ننسى الهدف الذى جئنا من أجله .

لويس : (فى رضا) استعد الآن يا كونت دارتوا ، فقد آن لنا أن نتحرك بعد أن مات سلطانهم .

دارتوا : لقد مات سلطانهم من زمن بعيد .

لويس : لكن ما تيقنا موته إلا اليوم .

دارتوا : قد أخبركم به أحمد منذ ثلاثة أسابيع ، وجاء يحرضكم على المبادرة بالهجوم قبل أن يلتئم شملهم فكذبتموه وقلتم إنه جاسوس .

لويس : ما زلنا نظن أنه جاسوس . ألا يزعم لنا أنه يعمل خادما فى قصر السلطان ؟

دارتوا : بلى .

لويس : فكيف يعقل أن يخون سيده ؟

دارتوا : إنه فى الحقيقة فلاح يربى النحل ويتجر فى العسل ، وإنما اشتغل خادما فى قصر السلطان ليكون قريبا من ابنة عمه المخطوبة له من الصغر عسى أن يتسنى له الهرب بها من القصر .

لويس : لو كان ما زعمه صحيحا لما ترك القصر بعد أن مات غريمه السلطان .

دارتوا : كان السلطان قد ضمها إلى جواريه ليتسراها ، ولكن الله بلاه بالمرض قبل أن يمسها بسوء ، فلما هلك خشى عليها أحمد من ابنه الشاب الذى سيحضر من الخارج ليتولى العرش مكان أبيه . فلما أعياه الأمر جاء يستنصرنا لننقذها

له ، وعرض علينا أن يدلنا على الطريق ويقدم لنا كل عون يقدر عليه ، أفيكون جزاؤه منا الحبس والاعتقال ؟

لويس : ما يدرينا ألا يكون اخترع هذه الحكاية ليستدرجنا إلى كمين منصوب ؟

دارتوا : قد تبين لكم الآن صدقه فيما أخبر به من موت السلطان .

لويس : هذا صحيح ولكن الحكاية الأخرى لم يقم لنا عليها دليل .

مرجريت : **(التى كانت تتابع الحديث عن أحمد باهتمام خاص)** يا سيدى لقد ظلمنا هذا الشاب المسكين . من أين له أن يقيم لنا الدليل على سر كهذا لا يعلم به غير المقيمين فى قصر السلطان أو المترددين عليه ؟

لويس : إنك دائما تدافعين عنه يا مرجريت .

دارتوا : الحق معها يا سيدى . لقد أدركت من حديثه عن ابنة عمه أنه صادق فيما يقول ، وأنه يستحق العطف .

لويس : النساء يا دارتوا دائما يسحرهن حديث الحب !

دارتوا : وأنا يا سيدى هل أنا امرأة ؟

(يتضاحك الثلاثة) .

لويس : حاشاك ! ستثبت فى المعركة القادمة يا أخى أنك أكثر من رجل .

دارتوا : ولكن متى يا سيدى ؟ متى نخوض هذه المعارك فقد طال علينا الانتظار ؟

(يدخل بواتييه) .

لويس : ماذا وراءك يا كونت بواتييه ؟ هل من جديد ؟

بواتييه : نعم يا سيدى. حضر الساعة رسول من القائد فخر الدين ومعه هذه الرسالة.

(يناوله رسالة مختومة).

لويس : وأين تركت الرسول؟

بواتييه : أسفل يا سيدى مع الكونت أنجو.

لويس : **(يفض الرسالة ويناولها لدارتوا)** اقرأها يا روبير.

دارتوا : عجبا.. رسالة من ثلاثة أسطر فقط.

لويس : اقرأها.

دارتوا : **(يقرأ)** إلى الملك لويس ملك الفرنج. سلام عليكم. أرسل إليكم هذا مع مملوكى الأمين جوهر الفخرى ليشافهكم بما أريد، فاعتمدوا ما يقول. إمضاء: قائد العساكر فخر الدين.

لويس : رسالة شفوية. على بالرسول يا كونت بواتييه، وادع الكونت أنجو معك.

(يخرج بواتييه).

(تهم مرجريت بالانسحاب، فينهض لويس ويستوقفها فى لطف كأنه يريد أن يصالحها).

لويس : إلى أين يا عزيزتى؟

مرجريت : ربما لا مكان لى بينكم الساعة.

لويس : بل تبقين يا عزيزتى معنا لعل لك رأيا نستنير به. **(يجلس لويس على الكرسى الأيمن وتجلس مرجريت على الكرسى الأيسر).**

دارتوا : أجل قد تبين لنا الآن يا صاحبة الجلالة أن رأيك فى أحمد كان هو الصواب . ترى ماذا يريد فخر الدين هذا ؟

لويس : الساعة نعرف .

(يدخل بواتييه وأنجو ومعهما جوهر الفخرى) .

جوهر : سيدى الملك . إن قائد العساكر الأمير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ الذى انتهى إليه أمر البلاد بعد وفاة السلطان الملك الصالح أيوب ، يعرض عليكم حبا للسلام ورغبة فى حقن دماء الفريقين أن تجلوا بعساكركم عن أرض مصر ، وينزل لكم عن بيت المقدس وعسقلان وطبرية .

لويس : هذا كل الرسالة ؟

جوهر : نعم ، إلا أنه يطلب منكم سرعة الرد حتى يتمكن من إبرام هذا الصلح الشريف معكم وتنفيذه قبل أن يقدم السلطان الجديد توران شاه ، خشية ألا يوافق على هذا الصلح .

لويس : وأين هو السلطان الجديد ؟

جوهر : سيحضر من ديار بكر فى وقت قريب ليجلس على العرش مكان أبيه .

لويس : وهل يملك فخر الدين أن يعقد معنا الصلح ؟

جوهر : نعم . هو الحاكم الشرعى للبلاد إلى أن يجىء السلطان الجديد .

دارتوا : (**للويس**) كلا يا سيدى لا ينبغى أن ...

مرجريت : (**مقاطعة**) ألا تريحون هذا الرسول أولا وتكرمون وفادته ريثما يستقر الملك على القبول أو الرفض ؟

لويس : صدقت يا عزيزتى . خذه معك يا كونت بواتييه إلى دار الضيافة ، ومرهم بإكرامه وتوفير أسباب الراحة له ثم عد إلينا للمشورة .

بواتييه : سمعا يا سيدى . (**يخرج ومعه الرسول**) .

لويس : (**لدارتوا**) ويلك يا روبير . أنت دائما متسرع أهوج . كيف تريد أن تبدى رأيك والرسول يسمع ؟

دارتوا : لم لا يا سيدى ؟ نحن أقوياء ولا نخاف من أحد .

لويس : بل نخاف على سرنا أن يطلع عدونا عليه .

دارتوا : هو الآن ليس بيننا . يا سيدى .. هذا الصلح الذى عرضوه يدل ..

لويس : (**مقاطعا**) انتظر قليلا حتى يعود بواتييه .
(**يعود بواتييه فيأخذ مكانه بينهم**) .

لويس : (**لدارتوا**) الآن قل ما عندك .

دارتوا : كنت أريد أن أقول إن هذا الصلح الذى عرضوه يدل على أنهم فى حالة ضعف واضطراب ، فعلينا أن نرفضه ونبادر بالهجوم قبل أن يحضر سلطانهم الجديد .

بواتييه : أما أنا فأرى أن نقبل هذا الصلح فى الحال ، فإنه يحقق لنا الهدف العظيم الذى جئنا من أجله وهو تحرير بيت المقدس بدون قتال ولا خسارة أرواح . بل يحقق لنا أكثر من ذلك إذ يضم إلينا طبرية وعسقلان .

دارتوا : ولكننا لا نكتفى اليوم بهذا . يجب علينا أن نقضى على بابل الجديدة ، فهى معقل الكفر فى الشرق كله بل فى العالم أجمع .

بواتييه : إن أخى الكونت دارتوا يظن الاستيلاء على القاهرة نزهة ممتعة .

دارتوا : وأنت يا كونت بواتييه يبدو أنك لا تريد أن تشهد ولا معركة واحدة . تأخرت عنا بفرنسا سنة كاملة إلى أن تم لنا احتلال دمياط . وأنت اليوم تستعجلنا على الرجوع إلى فرنسا قبل أن تقع عينك على وجه عدو واحد .

لويس : روبير لا تخرج عن الموضوع ولا تجرح شعور أخيك . ما تخلف أخوك عبثا بل كان يحشد لنا الرجال ويجمع الذخائر والمؤن .

بواتييه : لا تثريب عليه يا سيدى فإنما دفعته الحماسة إلى ما قال . (**لدراتوا**) ولكن القاهرة يا أخى ، أو بابل الجديدة كما تسميها ، من المدن المنيعة ، ومن دونها طريق طويل تعترضنا فيه قنوات النيل وترعه ، وسيقاتلنا العدو فى كل شبر منه ، فانظر ماذا يكبدنا ذلك من الخسائر فى الأرواح والأموال .

دارتوا : هذا ما نريد . وما جئنا إلا لنقاتل هؤلاء الكفار لإعلاء كلمة المسيح .

بواتييه : إن كنا نريد إعلاء كلمة المسيح فهذا وطن المسيح قد عرض علينا عفوا وصفوا ، فلا يجوز لنا أن نرفضه طمعا فى الاستيلاء على بلاد أخرى فى حرب لا نعلم لمن تكون الغلبة فيها . ومن المحتمل أن نهزم فيها فلا تقوم لكلمة المسيح قائمة فى هذا الشرق .

لويس : وأنت يا كونت أنجو ما رأيك ؟

أنجو : إنى مع الكونت دارتوا فى رفض الصلح . فإنا قد نحصل على بيت المقدس والبلدين الآخرين إن قبلناه . ولكن هؤلاء العرب سيستردون تلك البلاد من أيدينا بعد حين ما بقيت هذه القلعة التى يسميها الكونت دارتوا بابل الجديدة . لا أمان لنا يا سيدى فى الشرق ، ولا أمان لإمارتنا الصليبية فيه إلا إذا سحقنا مصر ومحونا عاصمتها العتيدة من الوجود .

لويس : بوركت . هذا عين الحق . ومن أجل هذا لم نوجه حملتنا المقدسة إلى سوريا بل إلى مصر . إنى أريد أن أصفى هذا الشرق كله للصليب فلا يحتاج من بعدى إلى حملة صليبية جديدة !

دارتوا : (يهتف فى حماسة) حيِّيت يا حامى الصليب .

أنجو : ولكنى ما زلت يا سيدى مصرا على رأيى فى غزو القاهرة من طريق الإسكندرية لا من طريق دمياط .

دارتوا : ويلك . ألهبت النار ثم سكبت عليها الماء : كيف نتخلى عن دمياط وقد سقطت فى أيدينا ؟

أنجو : لن نتخلى عن دمياط . سنترك فيها حامية كافية وننقض بأسطولنا على الإسكندرية ، فنغلق عليهم المسالك البحرية ونضمن سلامة السفن القادمة لنا من أوربا ومن إماراتنا الصليبية بسوريا . ثم نزحف منها إلى القاهرة عن طريق الصحراء حيث لا تقاومنا المدن والقرى ، ولا تعترضنا القنوات والترع ، ولا نتعرض لإغراقنا بالماء إذا كسروا السدود كما وقع من قبلنا لجان دى بريين إذ سلك طريق

دمياط فحاقت بجيوشه تلك الهزيمة المروّعة !

دارتوا : إنك تذكرنا دائما بهزيمة چان دى برين كأنما تتمنى أن يحيق بنا مصيره . وتنسى أننا اليوم يقودنا ملك مسيحى تقى مؤمن لا يمكن أن يخذله الله أبدا .

أنجو : الحرب هى الحرب لا ينُتصر فيها بالتقوى والصلاح ولكن بالرأى والحكمة والمعرفة .

دارتوا : ألا يوجد الرأى والحكمة والمعرفة إلا عندك ؟

أنجو : هذا ليس رأيى وحدى بل رأى جميع البحارة ورجال الأسطول .

دارتوا : ما لنا ولرجال الأسطول ؟ إنهم لا يعرفون غير قتال البحر . أما البر فنحن فرسانه وأبطاله .

أنجو : ورأى الكونت بريتانى أيضا ، وهو ذو خبرة بالشرق وقد شهد حملة چان دى برين فهو يعرف هذه البلاد معرفة جيدة .

دارتوا : البطرك روبرت بطرك بيت المقدس يعرف الشرق خيرا منه ، وهو على رأيى .

أنجو : عجبا .. هل نحن ماضون إلى ميدان حرب أم إلى حفلة قداس ؟!

(**يضحك بواتييه ومرجريت دون الآخرين**) .

لويس : (**فى شىء من الامتعاض لهذه النكتة**) يا كونت أنجو . أنا واثق أن الله ما يسر لنا فتح دمياط دون عناء إلا ليلهمنا أن فتح القاهرة من هذا الطريق .

أنجو : يا سيدى إنى أحترم ثقتك بالله وإلهامه ، فلنشطر الجيش شطرين على سبيل الاحتياط فشطر يغزو القاهرة من دمياط وشطر يغزوها من الإسكندرية .

دارتوا : عجبا لك ، تخوفنا من الهزيمة ونحن مجتمعون فى جبهة واحدة ثم تدعونا إلى القتال فى جبهتين ! ترى إلى أى شطر تنضم وفى أى الجبهتين تقاتل ؟ أم تريد أن تبقى فى الثغر مع الحماية ؟

أنجو : (**غاضبا**) روبير ، هذه إهانة لا أحتملها من مثلك ، قدم اعتذارك لى فى الحال !

دارتوا : كلا لن أفعل . فيم أعتذر ؟

أنجو : إنك عرَّضت بشجاعتى واتهمتنى بالجبن .

دارتوا : أنت الذى اتهمت نفسك .

أنجو : (**يرفع يده ليلطم دارتوا ثم يعدل عن لطمه**) لولا مقام أخى الملك لأدبتك حتى تعرف قدر نفسك !

دارتوا : (**يستشيط غضبا**) بل أنت أجبن من ذلك .

أنجو : (**يرمى قفازه فى الأرض**) خذه إن كنت شجاعا .

(**يهم دارتوا بأخذ القفاز فيسبقه بواتييه إلى التقاطه**) .

لويس : أحسنت يا كونت بواتييه ، (**يلتفت إلى أنجو**) ويلك يا قابيل أتريد أن تقتل أخاك ؟

أنجو : يا سيدى إن هابيل لم يبدأ أخاه بالعدوان كما فعل هذا الوقح !

لويس : ويلك ألم تسمع السيد المسيح يقول : من ضربك على خدك الأيسر فأدر له خدك الأيمن ؟ هيا تصالحا قدامى الساعة ،

يا كونت أنجو مد إليه يدك .

(يمد أنجو يده إلى أخيه فيتصافحان) .

لويس : **(لمرجريت)** ماذا ترين أنت يا عزيزتى ؟ نحب أن نسمع رأيك .

مرجريت : أنا أؤيد الكونت بواتييه فى قبول الصلح . لقد سمعت من أحمد أن فخر الدين هذا يطمع فى الملك لنفسه ، فلعله عرض علينا اليوم هذا الصلح ليستعين بنا على بلوغ ما يريد . فإذا أتحنا لفخر الدين الاستقلال بحكم مصر فسينفصل بها عن سوريا ولا يعود بينهما اتحاد . وبذلك يزول الخطر الذى يتهدد إماراتنا الصليبية هناك ، ويبقى القدس فى أيدى الصليبيين ، وهو غاية ما نريد .

بواتييه : هذا يا سيدى رأى وجيه ، فكل خطر علينا إنما يكمن فى اتحاد هذين القطرين . ألا تذكر كيف هجم نائب السلطان بدمشق على صيداء فانتزعها من أيدى إخواننا الصليبيين حين بلغه أننا احتللنا دمياط ؟

أنجو : ولكن ما يضمن لنا ألا يتحد القطران بعد ذلك مرة أخرى على يد فخر الدين أو على يد غيره ، إن هؤلاء العرب يختلفون ولكنهم دائما يتحدون فى النهاية . يا سيدى لا أمان لنا ما بقيت مصر .

دارتوا : أجل .. من يرد قتل الحية فليهشم رأسها أولا ، وبابل الجديدة هى الرأس . إن جلالة الملكة تستشهد بقول أحمد لتدعونا إلى قبول الصلح ، ولكن أحمد يحرضنا على المبادرة بالهجوم .

مرجريت : من يدرى لعله ينصحنا بقبول هذا الصلح إذاعلم برسالة فخر الدين إلينا اليوم ، ولا سيما إذا ضمنًا له على فخر الدين أن يعيد إليه حبيبته . **(تظهر بياتريس وچان على الباب الأيمن كأنهما تترددان فى الدخول) .**

لويس : **(يلمحهما)** ادخلى يا كونتس أنجو ، وأنت يا كونتس بواتييه .

(تدخل بياتريس وچان خجلتين فتجلسان على الأريكة اليمنى ، وتنظر إليهما مرجريت نظرة ذات معنى) .

أنجو : ما شأننا بأحمد هذا ؟ إنى لا أثق به ولا أطمئن إليه ، وأغلب الظن أنه جاسوس خطير .

لويس : هذا رأيى أيضا فيه .

مرجريت : **(تتمتم)** مظلوم والله ... مظلوم .

دارتوا : **(يتمتم)** هذا جزاء المخلصين عندنا .

بواتييه : اسمعوا ، فى وسعنا اليوم أن نكتشف صدقه من كذبه .

الجميع : كيف ؟

بواتييه : نسأل هذا الرسول عنه وعن قصة ابنة عمه فى القصر .

أنجو : أفضل من هذا أن نجمع الرجلين هنا بغتة لنرى ونسمع ما يدور بينهما .

لويس : رأى جميل ، أحضروهما فى الحال .

أنجو : **(ينهض مسرعا ويشير لبواتييه)** أحضر أنت الرسول وسأحضر أنا أحمد .

(يخرجان من الباب الأيسر وتضغط چان على يد

بياتريس كأنها تقول لها : لو بقينا عند أحمد حتى الآن لانكشفنا) .

لويس : الآن نكشف أمر صديقك يا دارتوا .

دارتوا : أنا واثق يا سيدى أن ظنى فيه لن يخيب .

لويس : لآمرن بقتله إن تبين أنه كاذب .

دارتوا : وإذا تبين أنه صادق ؟

لويس : فسنكرمه ونعتمد عليه .

(يعود أنجو ومعه أحمد ، فيدنو أنجو من لويس ويسر كلاما فى أذنه . وفى خلال ذلك تقع عينا أحمد على مرجريت ودارتوا يبتسمان له فيبتسم لهما محييا ولكنه يتوقى النظر إلى بياتريس وچان) .

لويس : اجلس يا أحمد معنا فقد عرفنا صدقك وإخلاصك .

أحمد : شكرا يا مولاى الملك . (**يفسح له دارتوا فيجلس بجواره**) .

(يدخل بواتييه ومعه جوهر) .

لويس : أيها السيد أتعرف هذا الشاب ؟

جوهر : (**مظهرا الدهش**) أحمد النحال !

أحمد : (**مظهرا الدهش أيضا**) جوهر الفخرى !

جوهر : (**للملك**) سيدى الملك ، ماذا يعمل هذا الخادم هنا عندكم ؟

أحمد : وماذا تعمل أنت يا مملوك ؟

جوهر : ويلك أنا رسول الأمير فخر الدين إلى الملك .

أحمد : هل يريد سيدك الخائن أن يعاونه الملك على اغتصاب عرش البلاد ؟

جوهر : هذا ليس من شأنك . ولكن ماذا تصنع أنت هنا يا خائن ؟

أحمد : لست بخائن يا مملوك ، إنى أنتقم من الذين اغتصبوا منى ناعسة .

جوهر : قريبتك التى فى القصر ؟

أحمد : نعم .

جوهر : ويلك ! أتخون المسلمين جميعا وتعمل جاسوسا عليهم من أجل فتاة فلاحة ؟

أحمد : من حقى أن أنتقم لحبى وشرفى . أنا فلاح شريف ولست بديُّوث .
(**يلتفت إلى الملك**) حذار يا سيدى أن يخدعك فخر الدين .. إنه إن تودد إليكم اليوم من ضعف واضطراب فسينقلب غدا عليكم حين يقوى مركزه فى البلاد .

جوهر : أيها الخائن ، ستنال غدا جزاء خيانتك .

أحمد : هيهات !

لويس : كفى جدالا أمامى ، عد بالرسول إلى مكانه يا كونت بواتييه حتى نعد لسيده جواب رسالته . (**يخرج بواتييه وجوهر**) .

مرجريت : أتأذن لى يا سيدى أن أوجه حديثى إلى أحمد ؟

لويس : افعلى يا عزيزتى .

مرجريت : يا أحمد، إن الملك قد وثق بك فعليك أن تخلص له النصح. هذا

فخر الدين قد عرض علينا اليوم أن يعطينا بيت المقدس وعسقلان وطبرية إذا قبلنا أن نجلو بعساكرنا عن أرض مصر ، فما رأيك فى هذا الصلح ؟

(يصمت أحمد قليلا كأنه يفكر فيما سمع ، وفى أثناء ذلك يعود بواتييه فيأخذ مجلسه بينهم ، وتتعلق الأنفاس انتظارا لما يجيب به أحمد) .

لويس : أجب يا أحمد .

أحمد : مولاى الملك إياك أن تقبل .

(يكتئب بواتييه ومرجريت ويتهلل أنجو ودارتوا سرورا) .

بواتييه : لكن لماذا ؟

أحمد : أنتم الخاسرون إن قبلتم ، لأنه لن يسلم لكم بيت المقدس وطبرية وعسقلان ، لا ضنا بها عليكم ، فحسبه هو أن يملك مصر ، ولكن لعجزه عن تسليمها لكم ، فأهل الشام لا يمكن أن يوافقوا على اعتلائه عرش مصر ، فهو ليس من آل أيوب ولا من الأمراء المماليك ذوى النفوذ ، وإنما هو رجل من الشعب لا أتباع له ولا أنصار .

مرجريت : لا تخف يا أحمد ، فسنضمن لك على فخر الدين أن يعيد لك حبيبتك .

أحمد : يا مولاتى الملكة إنك أمرتنى أن أكون ناصحا أمينا للملك فأطعت أمرك . أما حبيبتى ناعسة ففى وسعكم أنتم أن تعيدوها إلىّ إذا فتحتم البلاد .

لويس : أحسنت يا أحمد. ولكن قل لى : هل أنت واثق أن فخر الدين يريد المُلك لنفسه؟

أحمد : هذا يقين لا شك فيه، وهو يا سيدى معلوم للجميع. أتظنونه ما كان يستطيع أن يثبت لكم فى دمياط لو أراد وهو من أكفأ القُواد؟ إنما تعمد سحب عساكره منها وتعريضها للوقوع فى أيديكم ليمهد لنفسه سبيل الوثوب على الملك حين يموت السلطان المريض، وقد كان.

(ينظر بعضهم إلى بعض متعجبين).

لويس : تفسير معقول.

أحمد : يا مولاى قد كان هذا الذى ارتكبه فخر الدين أمس من ضربات الحظ السعيد لكم فلا تضيعوا فرصتكم اليوم.

دارتوا : (**ينهض واقفا والسيف فى يده**) سيدى الملك، قسما بالسيد المسيح لئن لم تقرر الهجوم على بابل الجديدة فى الحال لأكسرن سيفى هذا ولأرجعن إلى فرنسا اليوم.

لويس : (**مبديا الرضا**) احفظ يا أخى سيفك فقد قررت الهجوم (**يرسم علامة الصليب فى خشوع**) باسم الآب والابن والروح القدس.

الجميع : (**يوقنون بألا سبيل الآن للاعتراض على قرار الملك فيرسمون علامة الصليب مثله**) باسم الآب والابن والروح القدس.

أنجو : أرى الآن يا سيدى أن يقتل هذا الرسول.

مرجريت : كلا يا سيدى، إن الرسل لا يقتلون إلا عند الهمج.

أحمد : إن أذنت لى يا مولاى فالرأى عندى أن تبعثوا معه ردا بقبول العرض ، لتخدعوا فخر الدين وتفاجئوه قبل أن يستعد .

لويس : برافو .. برافو ! إنك لذو رأى سديد .

أنجو : من أجل ذلك يا سيدى اقترحت قتل الرسول حتى لا يبلّغ عن أحمد . فإننا سنحتاج غدا إليه فى أمور كثيرة هناك .

أحمد : شكرا لك يا سيدى الكونت . ولكن لا تخف . إنى أستطيع أن أتنكر كما أشاء فلا يعرفنى أحد .

لويس : (**معجبا**) بوركت يا أحمد . لأعطينك وسام الشرف يوم يتم لنا النصر .

دارتوا : أبشر يا صديقى بوسام الشرف ! سأنزلك اليوم معى ولن تعود إلى الزنزانة .

(يستر أحمد وجهه بيديه وينشج باكيا فينظرون إليه متعجبين) .

لويس : ما خطبك يا أحمد ؟ ماذا يبكيك ؟

أحمد : (**بصوت تخنقه العبرات**) ناعسة يا مولاى ، حبيبتى ناعسة !

دارتوا : (**يربت على كتفه مواسيا**) لن يصيبها سوء . سنستردها لك غدا من القصر .

أحمد : (**فى نشيجه**) ناعسة ، ناعسة !

(تتأثر چان وبياتريس وتتنهد مرجريت ويطفر الدمع من عينيها فتمسحه بمنديلها ، ويلاحظها لويس فتبدو الغيرة فى وجهه ويلمع الحقد فى عينيه) .

لويس : (**يصيح فجأة كأنما دون وعى منه**) چان دى بوا ! أين چان دى بوا ؟

أنجو : فى مكانه يا سيدى بالمخفر الأمامى خارج المدينة .

لويس : حسبتكم رأيتموه اليوم هنا فى المدينة (**كمن يحاول إصلاح الهفوة التى بدرت من لسانه**) لكى نأمره أن يخطر المعسكرات التى حواليه بالاستعداد للمسير (**يعلو صوته**) يجب أن ننقذها من فتنة الشيطان ، يجب أن ننقذ ناعسة !

دارتوا : سمعت يا أحمد ؟ مولانا الملك نفسه هو الذى تعهد بإنقاذها لك .

أحمد : (**فى حرقة**) يا ليتها ماتت قبل اليوم !

(**يدهش الجميع**) .

دارتوا : كيف تتمنى موتها وأنت تحبها ؟

أحمد : (**يرتمى باكيا على ذراع دارتوا**) لولاها يا سيدى الكونت لما اضطررت أن أخون أمتى وبلادى !

(**يعترى الجميع رثاء ووجوم**) .

(**ستار**)

الفصل الثاني

المشهد الثالث

بهو كبير فى القصر السلطانى بالمنصورة :

أريكة فاخرة فى صدر المسرح حولها مقاعد مبطنة بالجلد متناثرة فى المكان .

باب على اليسار يؤدى إلى داخل القصر وآخر فى الطرف الأيسر من الصدر يؤدى إلى الخارج .

فى الجانب الأيمن شباك كبير له فتحات متعددة تطل على الفناء الفسيح الذى يفصل بين القصر وبين سوره وسدته الخارجية .

(**الوقت أول الليل**).

يرفع الستار عن شجر الدر جالسة على الأريكة وقد جلس أمامها إلى اليمين على مقعدين متجاورين الطواشى جمال الدين وعز الدين أيبك .

شجر الدر : (**فى غضب**) ويلكم .. لا هم لكم إلا فخر الدين تأتمرون به وتدبرون له المكايد . ألا ترون عدونا بخيله ورجله لا يفصل بيننا وبينه غير البحر الصغير ؟

جمال الدين : يا مولاتى لا تصبى غضبك علينا ، فما نحن إلا رسولان إليك من إخواننا الأمراء المماليك .

أيبك : إن شئت دعوناهم إليك ليكلموك بأنفسهم.

شجر الدر : كلا لا أريد مقابلة أحد منهم.

جمال الدين : ولو تأذنين لركن الدين بيبرس فإنه يزعم أنه ينوب عن رئيسه فارس الدين أقطاى.

شجر الدر : كلا لا أريد بيبرس ولا غيره، أنتما تنوبان عن الجميع

جمال الدين : إذن فأرعينا سمعك يا مولاتى حتى نشرح لك ما يريدون.

شجر الدر : (فى ضيق) إنى مصغية.

جمال الدين : إنهم ضاقوا ذرعا بفخر الدين وكبريائه واستبداده. لقد أمرهم اليوم أن يتركوا معسكرهم حول القصر ليرابطوا على شط البحر الصغير فى هذا الجو البارد، زاعما لهم أن الصليبيين سينقضون على برنا بغتة بين ليلة وأخرى.

شجر الدر : إنه قائدهم فيجب أن يطيعوه.

أيبك : لكنا لا نقبل يا سيدتى أن يستبد علينا كأنما هو سلطان أو ملك.

شجر الدر : دائما هذه التهمة.

جمال الدين : لقد ظنوا — وظنهم فى محله — أنه أمرهم بذلك ليقصيهم عن المدينة وعن قصرك، فينتهز هو الفرصة ويعلن الملك لنفسه مستعينا بالأشرفية الموتورين وبجموعه من عامة الشعب.

شجر الدر : ما هذا اللغو؟ لو أراد فخر الدين ذلك لأعلنه نهارا جهارا ولما احتاج إلى مثل هذه الحيلة المزعومة. ويلكم ألا تعلمون أن فى يده عهدا مكتوبا من سيدى المرحوم بولاية الأمر من بعده؟

جمال الدين : هذا يا مولاتى يؤكد ظنهم ويؤيد مخاوفهم.

شجر الدر : ما أغباهم ، لقد مات المرحوم منذ ثلاثة أشهر ، فما الذى جعل فخر الدين ينتظر حتى اليوم لو كان ذلك فى نيته ؟

أيبك : كان يرتقب الظروف الملائمة . لذلك ما كاد يموت السلطان حتى بعث سرا إلى ملك الفرنج يعرض عليه أن ينزل للصليبيين عن بيت المقدس وطبرية وعسقلان إذا ضمنوا له ملك مصر .

شجر الدر : (**تضحك**) إنما فعل ذلك طبقا لخطة مرسومة ، وهو يعلم أن هذا الفرنسيس لن يقبل مثل هذا الاتفاق بحال . وهذا الذى كان .

أيبك : وكيف علم ذلك ؟ هل كان يعلم الغيب ؟

شجر الدر : الفرنسيس شديد التمسك بدينه ، وهو يأتمر بأمر البابا لا يجرؤ على مخالفته ، وإلا حل به ما حل بالأنبرور لما قبل مثل هذا الصلح مع الملك الكامل من قبل ، فكان جزاؤه من البابا أن حكم بكفره وخروجه من ملتهم .

أيبك : لماذا إذن كتم هذا الأمر ولم يستشرنا فيه أو يعلمنا على الأقل ؟

شجر الدر : ويلكم أتريدون أن يستشيركم فى سر كهذا وهو لا يرى منكم إلا العداوة والخذلان ؟

أيبك : وهل استشارك أنت ؟

شجر الدر : نعم . ولو لم يفعل لما عتبت عليه فهو قائدنا وعلينا أن نوليه الثقة الكاملة .

أيبك : إنه إنما يتودد إليك يا سيدتى لغرض فى نفسه .

شجر الدر : ماذا تعنى ؟

أيبك : قد بلغنا أنه يطمع فى الزواج منك ليصل بك إلى مأربه ، ثم لا يقيم لك وزنا بعد ذلك . وهذا أمر لا يمكن أن نقبله أبدا .

شجر الدر : يا ليته يطمع فى الزواج منى حقا ! إذن لتزوجته فلن أجد أكفأ منه ، ولكنه رجل قد زهد فى الملك وفى الجاه وفى كل شيء ، ولا هم له اليوم إلا أن يكيد للعدو لينزل به الضربة القاضية ولو فقد فى ذلك حياته . (**تنظر إليهما مليا ثم تقول لأيبك فى اهتمام**) لكن من أين سمعت هذا الكلام ؟

أيبك : (**كالمرتبك**) سمعته من غير واحد .

شجر الدر : (**فى خيبة أمل**) لعلك أنت الذى تطمع فى ذلك وليس فخر الدين !

أيبك : (**فى خجل واضطراب**) حاشاى يا سيدتى أن أحدث نفسى بالصعود إلى سمائك ، أنت مولاتى وزوجة مولاى .

شجر الدر : (**فى جفاء وغلظة**) فاسكت إذن ولا تطلق الإشاعات حول الناس .

(يتلون وجه أيبك وينظر إليه جمال الدين فى شىء من الشماتة)

(تدخل ناعسة فتدنو من شجر الدر وتسارها بحديث ثم تسر شجر الدر فى أذنها كلاما فتخرج ناعسة من حيث دخلت) .

جمال الدين : قبل أن نقوم من عندك يا مولاتى ماذا نقول لإخواننا الأمراء فيما بعثونا فيه ؟

شجر الدر : قولا لهم يطيعوا قائدهم فيما أمرهم به .

جمال الدين : إنهم قد حلفوا لا يبرحون معسكرهم حول القصر أبدا .

شجر الدر : (بحدة) قولا لهم إننى أنا التى آمرهم بذلك ، فليطيعوا أمرى أو فليعصوه .

جمال الدين : ليس من صالحك أن تخلطى أمرك بأمره .

شجر الدر : (غاضبة) أتهددنى يا جمال الدين؟

جمال الدين : معاذ الله يا مولاتى . إننا جميعا فى طاعتك وليس فينا أحد يجرؤ أن يعصى لك أمرا . أنت فينا اليوم بمكان مولانا المرحوم الصالح أيوب .

أيبك : بل إننا لنحبك أكثر مما كنا نحبه !

شجر الدر : (تنظر إليه نظرة ثم تلتفت إلى جمال الدين) فما هذا الذى قلته الساعة؟

جمال الدين : يا مولاتى لو كنت أمرتهم بذلك ابتداء لأطاعوك فيه ولو ماتوا فى سبيله ، ولكنهم يعلمون أن هذا هو أمر فخر الدين الذى عارضوه من قبل ، فلا تضعيهم فى موقف حرج فتزيدى من سخطهم وتذمرهم ، وليبق مكانك فوق الجميع مرعى الحرمة موقر الجانب .

شجر الدر : (بعد صمت يسير) اتركانى أوامر نفسى فى هذا الشأن إلى حين .

جمال الدين : (ينهض) شكرا يا مولاتى لعطفك ورعايتك .

أيبك : (ينهض أيضا) نسأل الله لك التوفيق والسداد .

(يخرجان) .

شجر الدر : (**تدنو من الباب الأول فتنادى**) ناعسة ! أئتينى بصاحبيك .

(**تعود إلى مكانها فى الأريكة**)

(**تدخل ناعسة ومعها أحمد وجوهر الفخرى**) .

جوهر : (**ينحنى محييا**) أسعد الله مساءك يا مولاتى السلطانة .

شجر الدر : أهلا وسهلا .. ترى فى أى شيء أرسلك مولاك ؟

جوهر : معذرة يا مولاتى .. ما أرسلني مولاى فى شيء .

شجر الدر : (**تنظر إلى أحمد**) ألم تبلغ الأمير فخر الدين أننى أرحب بلقائه الليلة ؟

أحمد : بلى يا مولاتى وهو قادم بعد قليل .

جوهر : بعد أن يصلى العشاء، يا مولاتى .

شجر الدر : إذن ففيم مجيئك أنت يا جوهر ؟

أحمد : جئنا معا يا مولاتى لنكلمك فى أمر مهم قبل أن يحضر الأمير .

شجر الدر : (**فى شيء من الأسى**) لو كان هو الذى أرسلكما فيه لربما يكون حقا أمرا ذا بال . ولا بأس هاتيا ما عندكما .

جوهر : إنه قد قرر اليوم يا مولاتى أن يتعرض للموت ليستريح من مكايد الأمراء المماليك .

شجر الدر : (**متعجبة**) كيف ؟

أحمد : صمم على أن يواجه الفرنج وحده إذا عبروا المخاضة حتى يستشهد .

جوهر : قرر أن ينتحر يا مولاتى .. أن يفارق الحياة .

أحمد : وقد حاولنا أن نصرفه عن هذا العزم بكل سبيل فلم ننجح .

جوهر : (يبكى) امنعيه أنت يا مولاتى فأنت وحدك تستطيعين أن تمنعيه .

شجر الدر : هذا غير معقول . لعله قال لكما ذلك فى نوبة من نوبات ضيقه بهؤلاء المماليك لينفس عن ذات صدره ولم يقصد حقا ما فهمتماه ، أو لعله كان يمزح معكما فيما قال .

جوهر : كلا يا مولاتى ، إنى أعرف مزاحه من جده . ولقد رأيته يكتب وصيته ويجمع ديوان شعره ويستحم كل ليلة ليلقى ربه على طهارة .

الحاجب : (**يظهر على الباب**) الأمير فخر الدين يا مولاتى .

شجر الدر : (**تنهض فرحة**) دعه يدخل .

(**يرتبك أحمد وجوهر**) .

أحمد : ألا ننسحب نحن يا مولاتى حتى لا يرانا ؟

شجر الدر : بل تبقيان حتى يكون هو الذى يأمركما بالانصراف إذا شاء .

فخر الدين : (**يدخل**) السلام عليكم .

شجر الدر : وعليكم السلام . مرحبا بمنقذنا الوحيد من خطر الفرنج .

فخر الدين : ما يصنع مملوكى هذا عندك ؟ أنا لم أرسله إليك ولا استأذننى هو فى زيارة القصر .

أحمد : أنا الذى أحضرته معى أيها الأمير .

فخر الدين : (**ممازحا**) لتخطب له جارية من جوارى مولاتنا السلطانة ؟

شجر الدر : (**باسمة**) إن شاء زوَّجته من إحداهن ليكون لى شرف الإصهار إليك ! اجلس يا ابن شيخ الشيوخ (**تجلس هى ويجلس فخر الدين**) إن صح يا فخر الدين ما سمعته منهما الليلة عنك فإنى عاتبة عليك مدى الحياة ، لا تكلمنى ولا أكلمك .

فخر الدين : (**مبتسما**) ماذا حدثك عنى هذان الشقيان ؟

شجر الدر : أنك تريد أن تعرض نفسك للموت .

فخر الدين : (**يتنهد**) أجل يا سيدتى هذا ما أردت أن أفاتحك فيه .

شجر الدر : (**مكتئبة**) من أجل هؤلاء المماليك الذين لا يسوون قلامة ظفرك ؟

فخر الدين : لا يا سيدتى بل من أجل سلامة الدين والأمة والوطن .

شجر الدر : سلامة الدين والأمة والوطن فى حياتك يا فخر الدين لا فى موتك .

فخر الدين : قد استخرت الله ربى فوجدت أن فى موتى اليوم حياة هذه الأمة .

شجر الدر : وهؤلاء الغزاة الصليبيون فى عقر دارنا ؟

فخر الدين : لولا هذا الخطر العظيم لكان لى شأن آخر مع هؤلاء المماليك .

شجر الدر : ماذا تعنى ؟

فخر الدين : لحرصت على حياتى لأتمكن من تنفيذ تلك الوصية الكبرى التى أوصانى بها زوجك المرحوم الصالح أيوب ، طيب الله ثراه .

شجر الدر : وما يمنعك اليوم من تنفيذها ؟ أعلنها يا فخر الدين وأنا معك ، ولن يجرؤ أحد أن يفتح فمه بكلمة .

فخر الدين : كلا يا سيدتى .. لا ينبغى أن نعرض سلامة البلاد لهذا الخطر الكبير من أجل مطلب لا يمكن تحقيقه إلا بعد دفع هذا الخطر .

شجر الدر : إذن فلتعش لتحقيقه بعد دفع هذا الخطر . لا ينبغى يا فخر الدين أن تدع وصية السلطان تموت بموته ، وأنت تعلم حرصه الشديد على تنفيذها قبل أن يلقى الله .

فخر الدين : هذه وصية الحق والعدل فلن تموت أبدا . إن لم يتسن تحقيقها اليوم فعسى أن يحققها بعدى بطل من أبطال هذه الأمة .

شجر الدر : (**بعد صمت يسير**) ولم لا تحاول أنت ذلك يا فخر الدين ؟

فخر الدين : تعلمين يا سيدتى أننى قد حاولت ذلك جهدى فلم أوفق .

شجر الدر : (**فى غضب**) يجب أن تتخلص من كل من يعترض طريقك من هؤلاء المماليك الخونة . لا تخف يا فخر الدين .. اضرب ضربتك وأنا معك ، ولن أتخلى عنك .

فخر الدين : كيف نتخلص منهم وهم عدتنا فى القتال ؟

شجر الدر : وكيف نقاتل الأعداء بهؤلاء الخونة الجبناء ؟

فخر الدين : كلا ليسوا جبناء يا سيدتى ولا خونة . وأنهم ليتحرقون شوقا إلى قتال العدو ، وما يثبطهم عن ذلك إلا وجودى على قيادتهم خشية أن أقوم بما يعرفونه عنى من جعل الحاكم من الشعب والجيش من الشعب .

شجر الدر : (**فى تأثر**) كلا لا بد أن نجد سبيلا آخر يا فخر الدين غير أن نخسرك .

فخر الدين : قد قلبت الأمور على وجوهها فلم أجد غير هذا الحل.اطمئنى ياسيدتى لن تخسر البلاد بموتى شيئا، بل ستكسب و تغنم.

شجر الدر : (**يوشك أن يغلبها الدمع**) انتظر يا فخر الدين ، سأدخل لبعض شأنى ثم أعود إليك (**تخرج مسرعة**) .

فخر الدين : (**يلتفت إلى أحمد وجوهر**) تبا لكما .. كان عليكما أن تؤيدانى فيما اعتزمت ، فأنتما أعرف الناس بأن هذا هو الحل الوحيد .

أحمد : بل يوجد حل آخر أيها الأمير (**بصوت خافض**) لم لا تتزوجها فهى تحبك وتعزك ، ولن يجرؤ أحد من هؤلاء المماليك حينئذ أن يرفع عينيه إليك .

جوهر : أجل يا مولاى لم يبق شك فى أنها تحبك .

فخر الدين : (**ينهرهما فى لطف**) صه ، إياكما أن تتلفظا بهذا الحديث مرة أخرى . ما بقاؤكما الآن هنا ؟ اذهب أنت يا جوهر لترى شئون الدار لعلهم يحتاجون شيئا ، ولا تنس أن تمر على الحمامى ليهيئ لى حمّاما الليلة .

جوهر : (**فى صوت يخالطه البكاء**) سمعا يا مولاى . (**يخرج**) .

فخر الدين : وأنت يا أحمد اذهب فتفقد ما قام به الأهالى من الاستعدادات فى الشوارع والأزقة ، ثم وافنى فى دارى لتخبرنى بما رأيت .

أحمد : سمعا يا سيدى . (**يتجه نحو الباب**) .

فخر الدين : طريقك من هنا (**يشير إلى الباب الثانى**) يجب أن تذهب الآن فى الحال .

أحمد : سأفعل يا سيدى .. من الباب الخلفى لأودع ناعسة (**يخرج**) .

فخر الدين : (**يزفر زفرة عميقة**) واها عليهما .. إنهما يبكيان علىّ .

(تعود شجر الدر وقد ارتدت حلة من المخمل الأسود الغليظ فزاد جمالها وظهر فى وجهها أثر الغسل بالماء) .

شجر الدر : أحسست بشىء من البرد فارتديت هذا الثوب الثقيل . أين ذهب الشقيان ؟

فخر الدين : صرفتهما .

شجر الدر : لماذا ؟ هل تريد أن تفاتحنى فى شىء لا تحب أن يسمعاه ؟

فخر الدين : أنا لا أخفى عنهما شيئا ، ولكن على كل منهما واجب لا ينبغى أن يهمله .

(تدخل ناعسة حاملة قدحين من الذهب الخالص فى صينية من الفضة) .

شجر الدر : هذه ناعسة بنتى .

فخر الدين : ما شاء الله . ما شاء الله (**يضحك**) .

شجر الدر : ما يضحكك يا فخر الدين؟

فخر الدين : هذه التى زعم أحمد للصليبيين حين كان عندهم فى دمياط أنه لجأ إليهم ليستنقذوها له من قصر السلطان !

شجر الدر : (**ضاحكة**) نعم نعم.

(تضع ناعسة لكل منهما قدحه وقد احمر وجهها خجلا).

فخر الدين : ما هذا يا ناعسة؟ قرفة باللبن؟

ناعسة : نعم يا سيدى الأمير.

شجر الدر : رأت الجو باردا فأرادت أن تدفئنا! بارك الله فيك يا بنيتى..

(يسود الصمت بينهما وهما يحتسيان المشروب وناعسة واقفة بالصينية كالتمثال)

فخر الدين : **(يفرغ من قدحه)** شكرا يا ناعسة لقد أحسنت صنعه **(يعيد إليها القدح)**.

شجر الدر : لقد قررت يا فخر الدين أن أستدعى الطواشى جمال الدين وعز الدين أيبك وهما لسان الأمراء المماليك لنواجههما بكل شىء، فما رأيك؟

فخر الدين : لا فائدة يا سيدتى من الحديث معهم.

شجر الدر : من أجل خاطرى يا فخر الدين.

فخر الدين : لا مانع عندى إن شئت.

شجر الدر : **(تعيد قدحها لناعسة)** ابعثى أحدا من عندك يا ناعسة لاستدعاء الطواشى وأيبك فى الحال.

(تحرك ناعسة رأسها علامة الطاعة وتخرج).

فخر الدين : لقد جربت معهم كل وسيلة.

شجر الدر : لكننى لم أكن معكم، فلعلهم الليلة حين يرون وقوفى إلى جانبك يرجعون إلى صوابهم، لا سيما وزعيمهم أقطاى لا يزال بعيدا عنهم مع توران شاه فى دمشق.

فخر الدين : أغلب الظن أنهما قد تركا دمشق منذ أيام، وأنهما الآن فى حدود الكرك.

شجر الدر : لا تؤاخذنى يا فخر الدين . كانت غلطة منى إذ وافقتهم على استقدام توران شاه دون استشارتك .

فخر الدين : لا عليك يا سيدتى ، فما كان فى وسعك يومئذ إلا أن توافقيهم .

(تسمع حركة بالباب)

شجر الدر : ادخل يا جمال الدين أنت وصاحبك .

(يدخل جمال الدين وأيبك فيومئان بالتحية لفخر الدين ويرد عليهما بالإيماء) .

(تشير لهما شجر الدر بالجلوس فيجلسان)

شجر الدر : إنى أريد الليلة أن أزيل هذا الجفاء الذى بينكم وبين قائدكم فخر الدين ، فصارحوه بما عندكم أمامى وليصارحكم حتى تتحد الكلمة فتقضوا على هؤلاء الغزاة فى وقت قريب .

أيبك : ماذا نقول له يا سيدتى ؟ إنه يعرف ما عندنا ونحن نعرف ما عنده .

شجر الدر : (**فى حدة**) ما هذا ؟ أهذا كلام يقال فى هذا المقام يا أيبك ؟

جمال الدين : أعتقد أن أول خطوة يخطوها الأمير فخر الدين أن يعفى الأمراء المماليك من ترك معسكرهم حول القصر ليرابطوا فى شط البحر الصغير دون داع .

فخر الدين : لو كان هذا أول أمر يتقاعسون عن طاعته لهان ، ولكنها سلسلة من العصيان ، أولها فى معركة دمياط ولن يكون آخرها المرابطة على البحر الصغير . هذا هو القول الصريح فهل تستطيعان أن تنكراه ؟

جمال الدين : فلنصارحك القول أيضا . إنهم ينكرون عليك استبدادك كأنك سلطان أو ملك . بل يرون أنك تسعى للملك وتعمل على تجنيد عامة الشعب لتستغنى بهؤلاء عنهم . ولولا حاجتك إليهم اليوم لقتال هؤلاء الصليبيين الغزاة لعجلت بذلك . فقد وضعتهم بين نارين : نار الفرنج اليوم ونارك غدا حين تجردهم من كل رزق وسلطة .

فخر الدين : أحسنت يا جمال الدين إذ صارحتنا بالحقيقة . أما استبدادى فأنا القائم بأعمال القيادة فمن حقى أن أطاع دون نقاش أو تردد . وأما السعى للمُلك وتجنيد الشعب فهذه رغبة مولانا السلطان ووصيته إلىَّ قبل أن يلقى الله . ولقد كان يريدها عاجلة قبل أن يموت ولكنى ناشدته أن يؤجلها حتى نطرد الغزاة من البلاد . فلم يوافق إلا بعد ما أخذ علىَّ عهدا بأن أعمل على تنفيذ وصيته بعد ما يزول خطر الفرنج .

شجر الدر : هذا صحيح ، وأنت يا جمال الدين تعلم ذلك .

أيبك : لا ريب أن مولانا السلطان كان قد فقد رشده إذ ذاك ، وإلا لما رضى أن يخرج المُلك من آل أيوب وهو الذى قضى حياته كلها فى تثبيت مُلكهم .

شجر الدر : كلا لقد بقى فى كمال رشده حتى أسلم الروح بين ذراعى .

أيبك : استغل ضعف السلطان فأدخل هذا الرأى فى عقله .

شجر الدر : لا يا عز الدين ، أشهد أنه كان يُثبِّطه عن ذلك حرصا على اتحاد الكلمة .

جمال الدين : أنسيت يا مولاتى أن فخر الدين كان أول من دعا إلى هذا الرأى من قبل؟

فخر الدين : حقا كنت أسعى إلى ذلك فيما مضى فعاقبنى السلطان بالحبس والاعتقال، ولكنى لم أعد بعدها منذ عفا عنى وأطلق سراحى.

أيبك : غير معقول أن ينقلب السلطان هكذا من النقيض إلى النقيض دون محرض.

شجر الدر : هذا لأنكم تجهلون المحنة القاسية التى كان يعانيها السلطان فى آخر أيامه. كان لا يخشى الصليبيين وحدهم، بل يخشى كذلك هجمات التتار من الشرق، ولا سيما بعد ما اكتسحوا الممالك الإسلامية القائمة بيننا وبينهم. وكان ضيق الصدر بما يرى من تناحر آل أيوب حتى عرضوا الدولة لطمع الطامعين. وكثيرا ما يأرق فى الليل ويبكى ندما على قتله لأخيه العادل، أو حزنا على ابنه المغيث الذى مات فى سجن عمه الصالح إسماعيل، ويعتقد أن هذه السيرة ستتكرر فى آل أيوب من بعده، والأعداء هم الغانمون، والأمة هى التى تدفع الثمن. فعزم صادقا على تغيير هذا النظام لتتحد الأمة من أقصى الصعيد إلى ديار بكر كما كان يقول. (**يغلبها البكاء فيسود الصمت لحظة**).

فخر الدين : إنكم تخشون أن يُستغنى عن خدمتكم، وغاب عنكم أننا إذا تم لنا ذلك فى المستقبل فسنحتاج إلى جيش قوى منكم ومن الشعب، فأمامنا رقعة واسعة من أقصى الصعيد إلى

ديار بكر ، وأمامنا كذلك أعداء من الغرب ومن الشرق .
وأنا أقسم لكم بالله أنني لن أعلن لنفسي العهد إلا إذا وافقتم على ذلك ، وإلا فسنختار رجلا آخر من أفاضل الأمة لنوليّه الأمر .

شجر الدر : الآن لم يبق لكم عذر إن كان فى قلوبكم ذرة من الإيمان بالله والإخلاص للدولة .

جمال الدين : يا مولاتى لو كان الأمر يخصنا نحن الاثنين لوافقنا ، ولكننا لا نحسب جماعتنا يقبلون ذلك . لقد حلفوا على ولاية توران شاه ولن يقبلوا غيره أبدا .

فخر الدين : إذن فلندع أمر المستقبل فى يد الله ، ولنواجه اليوم ما نحن فيه من الخطر . إن الفرنج قد اكتشفوا مخائض فى البحر الصغير وهم عازمون على اجتيازها بغتة ، فلتقوموا بواجبكم الذى رسمته لكم .

أيبك : لكنك لم تذكر لنا كيف بلغك هذا ؟

فخر الدين : من جواسيسى وعيونى .

شجر الدر : إنهم يظنونك نائما مثلهم !

أيبك : كلا يا سيدتى نحن لسنا نائمين ، ولو كان الأمر لنا لقضينا على الفرنج قبل أن يصلوا إلى البحر الصغير .

فخر الدين : يا عز الدين ، تلك خطة قد رسمناها فلا بد لنا من تنفيذها كما رُسمت .

أيبك : لنا الآن شهران وهم تجاهنا لا يفصلنا غير البحر الصغير .

فخر الدين : لا بأس علينا من ذلك بل البأس عليهم ، فكل يوم يقتل منهم

ويؤسر .

أيبك : أتعنى ما يقوم به الحراشفة من المناوشات التى لا تسمن ولا تغنى من جوع ؟

جمال الدين : (**فى سخرية خفيفة**) ليس لك أن تنكر فضل الحراشفة يا عز الدين . ألم تسمع بما فعله أحدهم إذ قورَّ بطيخة فأدخل فيها رأسه ثم عام بها وهو غاطس فى الماء إلى بر الفرنج ، فلما رآها أحدهم نزل ليأخذها ، فسحبه صاحب البطيخة إلى برنا وجاء به أسيرا ؟

أيبك : سمعت يا جمال الدين . من منا لم يسمع بهذه الحكاية ؟ عليك إذن يا فخر الدين أن تشترى آلاف البطيخ وتوزعها على الحراشفة ليحاربوا بها الفرنج !!

فخر الدين : إن تسخروا بهذه الأعمال فإنها هى التى أزعجت الفرنج حتى فكروا فى انسحاب شطر من جيشهم إلى دمياط بقيادة الكند أنجو أشجع إخوة الفرنسيس وأدهاهم ، ليبحر به إلى الإسكندرية فيغزو القاهرة منها . وما عدلوا عن هذا الرأى — لحسن حظنا — إلا حينما دلهم أحد البدو على تلك المخاضة . فلنستعد لهم ولنضربهم هنا ضربة تطير من رءوسهم ما يحلمون به من غزو القاهرة إلى الأبد .

جمال الدين : إن الجماعة قد وافقوا لك على ثلثمائة منهم يرابطون على البحر الصغير كما أردت ، فإذا سمعوا الصريخ هبوا جميعا للقاء العدو .

فخر الدين : ثلثمائة لا تكفى . ففرسان الداوية الذين سيجتازون المخاضة

مع الكند دارتوا هم جمرة عساكر الفرنج . أريد ألفين على الأقل يكون فيهم الأبطال من طراز بيبرس وبلبان الرشيدى وسنقر الرومى وسنقر الأشقر .

أيبك : وأنا هل نسيتنى ؟

فخر الدين : أنت ترابط بجماعتك هنا لحماية القصر .

جمال الدين : مستحيل أن يرضى هؤلاء الأمراء بعد ما أعلنوك بالرفض .

فخر الدين : إذن فليقض الله ما يشاء فإنما بيده وحده النصر .

شجر الدر : قوما إذن من عندى واتركانى وحدى مع الأمير .

(يخرج جمال الدين وأيبك) .

فخر الدين : قد قلت لك يا سيدتى لا فائدة من الحديث معهم . هؤلاء أقلهم تعصبا وتحاملا فما بالك بغيرهم ؟

شجر الدر : ولماذا اخترت عز الدين أيبك لحماية القصر ؟

فخر الدين : لأنه أحسنهم طاعة ، ولأن بين رجاله شابا يعدل هؤلاء المماليك جميعا شجاعة وأمانة .

شجر الدر : من ذا تعنى ؟

فخر الدين : سيف الدين قطز .

شجر الدر : ذاك الذى يقال إن أصله من بيت السلطان خوارزم شاه ؟

فخر الدين : هو حقا من ذلك البيت العريق وخلاله تؤيد ذلك (**يتنهد**) لا تعجبى يا سيدتى فتلك عاقبة ملوك المسلمين أن يصبح أولادهم مماليك يباعون فى أسواق الرقيق !

شجر الدر : (**تطرق مليا ثم ترفع رأسها**) ، أراك يا فخر الدين قد فكرت فى كل شىء ودبرت كل شىء إلا شيئا واحدا لم تشأ

أن تخطره ببالك .

فخر الدين : ما هو يا سيدتى ؟

شجر الدر : بحياتك لا تحوجنى إلى التصريح فقد فهمت ما أعنى .

فخر الدين : أخشى أن يخطئ فهمى ما أردت .

شجر الدر :إذا تحققتمو ما عند صاحبكم
من الغرام فذاك القدر يكفيه
أنتم سلبتم فؤادى وهو منزلكم
وصاحب البيت أدرى بالذى فيه

لمن هذان البيتان يا فخر الدين؟

فخر الدين : هما يا سيدتى لنفس الشاعر الذى يقول :
أأعصى هوى نفسى صغيرا وبعد ما
رمتنى الليالى بالمشيب وبالكبر
أطيع الهوى عكس القضية؟ ليتنى
خلقت إذن كهلا وألت إلى الصغر

(**تطرق شجر الدر مرة أخرى**) .

شجر الدر : (**تنشج باكية**) لا ينبغى لمثلك يا فخر الدين أن يموت .

فخر الدين : الأعمار يا سيدتى بيد الله ، فقد يموت الهارب من الموت وينجو طالبه .

شجر الدر : لست أدرى كيف تبيح لنفسك أن تحرم المسلمين كفايتك ، وهم أحوج ما يكونون إليك؟

فخر الدين : كلا لن يحرم المسلمون من كفايتى شيئا . كل ما عندى قد أفرغته فى تلك الخطة التى رسمتها لهذه الحرب بالتفصيل كما

شرحتها لك فى لقائنا السابق ، وفى وسعك بعدى أن تأمريهم بتنفيذها خطوة خطوة فهم يطيعونك ويسمعون لك . وكأنى حينئذ بالملك لويس هذا يقع أسيرا فى أيديكم هو وأكناده وباروناته ، فاحرصوا على حياتهم حتى يفتدوا أنفسهم منكم بالجلاء عن دمياط والجلاء عما بقى من أماراتهم بالشام ، فإنى أعلم أن لهذا الفرنسيس مقاما كبيرا عندهم ويعدونه من عظماء دينهم .

شجر الدر : والله يا فخر الدين لأنت عندنا أثمن من كل ذلك .
لا حق لك أن تقولى هذا ، فما من أحد تعدل حياته حياة الإسلام وأمته .

شجر الدر(**بعد صمت يسير**) هب أن الفرنج قد عدلوا عن مغامرتهم هذه بخوض البحر الصغير ، فماذا يكون ؟

فخر الدين : حينئذ سأكون موجودا عندكم إلى حين .

شجر الدر : إذن فلا خاضوه أبدا (**ترفع يديها إلى السماء**) يا رب ، اصرفهم عن القيام بهذه المغامرة .

فخر الدين : لن يقبل الله يا سيدتى دعاءك على المسلمين .

شجر الدر : لست أدعو عليهم بل أدعو لهم .

فخر الدين : فاعلمى إذن أننى أنا الذى دبرت هذه المكيدة للفرنج .

شجر الدز : (**متعجبة**) أنت الذى ....

فخر الدين : (**مكملا**) أوعزت إلى ذلك البدوى أن يدلهم على المخاضة.

شجر الدر : ماذا تقول ؟ ما حملك على ذلك ؟

فخر الدين : ألم تفهمى قصدى بعد ؟ لأصرفهم عن غزو القاهرة من

طريق الإسكندرية .

شجر الدر : إذن فعلام منعتموهم من إقامة الجسر ؟ علام بذلتم الجهود والأموال فى تحطيمه وتخريبه مرة بعد مرة حتى استعملتم النار الإغريقية فى حرقه وحرق برجيه الكبيرين ؟

فخر الدين : الجسر يا سيدتى غير المخاضة . المخاضة لا يمكن عبورها إلا فى هذين اليومين ، ثم يأتى المد بعد قليل فلا يصبح لها أثر .

شجر الدر : أفلا تخشى يا فخر الدين أن يدال لهم علينا فى هذه المعركة ، وأنت ترى أمر هؤلاء المماليك ؟

فخر الدين : أنا واثق أن المماليك سيقضون عليهم فى هذه المعركة .

شجر الدر : ويحك لماذا لجأت إلى هذه المكيدة المحفوفة بالخطر ؟ لماذا لا تنازل سفنهم الواردة من دمياط فتقطع عنهم الميرة والمؤن كما رسمت فى خطتك ؟

فخر الدين : ما حان أوان ذلك بعد ؟

شجر الدر : ماذا يمنعك الآن من ذلك ؟

فخر الدين : ما عندنا اليوم سفن كافية بعد .

شجر الدر : وماذا يفعل نائبنا حسام الدين فى القاهرة ؟ ألسنا أمرناه بصنع الشوانى والسفن من قبل أن يموت السلطان بمدة ؟

فخر الدين : إنه قد أرسل بعضها و لايزال يجهز ما بقى .

شجر الدر : قبحه الله . لا بد أنه متواطئ مع هؤلاء المماليك عليك . يجب أن يعاقب على خيانته .

فخر الدين : يا سيدتى ليس هذا وقت الحساب والعقاب .

شجر الدر : إنه ينتظر قدوم توران شاه ليتخذ له يدا عنده . إنهم جميعا

مداهنون منافقون .

فخر الدين : أنت كفيلة بهم جميعا يا شجر الدر ، ولا خوف على البلاد منهم ما بقيت واقفة لهم بالمرصاد .

شجر الدر : ماذا تصنع امرأة مثلى إذا غاب عنها الرجل ؟

فخر الدين : أنت عندى بألف رجل . لولاك يا شجر الدر ما أقدمت على نيتى هذه وأنا مطمئن البال ، هل لك يا سيدتى أن تأذنى لى فإن أمامى أمورا كثيرة يجب أن أقضيها قبل أن أنام ؟

شجر الدر : لا أستطيع يا فخر الدين أن أحول بينك وبين واجبك .

فخر الدين : (**ينهض**) وداعا يا شجر الدر ، يا من تعدل عندى ألف رجل .

شجر الدر : مع السلامة (**يخرج فخر الدين فتتهاوى هى على أريكتها باكية**) مع السلامة يا خير الرجال (**تنتحب**) يزعم أننى بألف رجل . آه يا ليته ارتضانى واحدة من النساء فحسب ... واحدة من النساء !

(**ستار**)

المشـهد الرابع

نفس المنظر السابق فى القصر السلطانى بالمنصورة وفى الليلة التالية .

(الوقت : فى الهزيع الأخير من الليل قبيل الفجر) .

يرفع الستار عن البهو خاليا يسوده سكون الليل ، ولا يصدع ظلامه غير النور الخافت المنبعث من القناديل المعلقة . وفجأة يسمع صوت هائج يصيح من بعيد ولا يزال يتضح صوته شيئا فشيئا حتى يرن فى سكون الليل رنينا حادا خارج القصر .

شجر الدر : سمعت يا ناعسة ؟ سمعت الصريخ ؟

الصوت : انتبهوا يا مسلمون ! الصليبيون فى بركم ، الصليبيـون فى بركم ، هبوا يا عرب يا مسلمون ! الصليبيون عبروا البحر الصغير إليكم ، هبوا يا عرب يا مسلمون ! **(يبتعد الصوت شيئا فشيئا كأن صاحبه يريد أن ينبه الناس فى كل مكان)**

(تدخل شجر الدر فى قميص نومها فزعة ، وتدخـل خلفها ناعسة مرعوبة) .

شجر الدر : سمعت يا ناعسة ؟ سمعت الصريخ ؟

ناعسة : **(يلجمها الرعب عن الكلام فتومئ برأسها أن نعم)** .... ؟

شجر الدر : ترى هل استيقظ المماليك من نومهم ؟ تبا لهم أين هم ؟ **(تنادى من الشباك)** عز الديـن أيبك ! جمال الديـن

محسن! عز الدين! جمال الدين! (**تخرج ناعسة منطلقة ثم تعود بجبة من الصوف**).

ناعسة : ارتدى هذه فإن البرد شديد. (**تلبسها الجبة**).

شجر الدر : شكرا يا بنيتى. (**تمضى فى ندائها**) جمال الدين! عز الدين!

(**يدخل جمال الدين وأيبك**).

الاثنان : لبيك يا سيدتى، لبيك يا مولاتى.

شجر الدر : ألم تسمعوا الصريخ؟

أيبك : بلى يا سيدتى، وقد أيقظت رجالى ليستعدوا للدفاع.

شجر الدر : ما تصنع أنت ورجالك هنا؟ اخرج بهم للقاء العدو.

أيبك : فخر الدين يا سيدتى أمرنا بحماية القصر.

شجر الدر : أمر صادف هواك، اذهب إذن فأيقظ البحرية، انطلق.

أيبك : لا بد أنهم قد استيقظوا.

شجر الدر : (**فى حدة**) انظر ماذا فعلوا؟ انطلق.

(**يخرج أيبك**).

وأنت يا جمال الدين انطلق فاعلم لى ماذا فعل فخر الدين.

جمال الدين : ألا أبقى عندك لأطمئنك؟

شجر الدر : (**فى حدة**) لا أريد أن يبقى عندى أحد. انطلق.

جمال الدين : سمعا يا مولاتى. (**يخرج**).

شجر الدر : (**تتمتم**) ترى ماذا فعل فخر الدين؟ ترى أين هو الآن؟ (**يعود جمال الدين فتهب فى وجهه**) ويلك ماذا رجع بك؟

جمال الدين : هذا جوهر الفخرى يا مولاتى يحمل نبأ عن سيده .

جوهر : (**يدخل باكيا**) مولاتى . أعظم الله أجرك فى مولاى .. البقية فى حياتك .

شجر الدر : (**فى اضطراب وتلعثم**) أين ؟ .. كيف ؟ .. تكلم يا جوهر ماذا حدث ؟

جوهر : كان بعد فى الحمام إذ سمعت الصريخ ، فأخبرته فخرج مسرعا من الحمام ، وركب جواده وركبنا نحن مماليكه معه ، فمر بنا على معسكر البحرية فجعل يوقظهم ويناديهم ، فلما تباطأوا قال لهم : سأسبقكم فالحقوا بى . وانطلق بنا صوب الشط وهو بغير درع ولا لامة ، وإذا بنا نلقى جماعة من الثلاثمائة المرابطين على الشط فارين من وجه العدو ، فناداهم سيدى ليكروا معه فلم يقبلوا ، وإذا بفرسان الداوية قد برزوا لنا فى عدد ضخم ، فجعل سيدى يقاتلهم ونقاتلهم معه ، وإذا مماليكه ينفضون عنه واحدا بعد واحد ويهربون ، فلما رأى سيدى ذلك صاح بى : انطلق يا جوهر فأنذر من فى القصر : وقد هممت أن أعصيه وأبقى معه ، فإذا هو قد اندفع فى غمارهم فغاب بين سيوفهم وسمعت صوته يقول : اللهم الشهادة فالجنة ! فتركته وانطلقت . آه يا ليتنى مت معه !

شجر الدر : (**تبكى**) رحمة الله عليك يا فخر الدين ، لقد نلتهما إن شاء الله : الشهادة والجنة . (**يدخل أيبك**) .

أيبك : وجدت البحرية قد هبوا جميعا يا سيدتى وسيخرجون لقتال

العدو .

شجر الدر : تبا لهم ، هلا عادوا إلى نومهم الآن ، فإن الذى كان يُؤرقهم قد مات !

أيبك : (**يطرق خجلا ولا يجيب**) ...؟

(**يسمع صهيل خيول فى فناء القصر**) .

شجر الدر : (**تدركها روعة**) ما هذا ؟ أو قد وصل العدو إلى القصر ؟

أيبك : (**كأنما يستعيد شيئا من اعتباره**) هذه خيول رجالى فى الفناء ... اطمئنى يا سيدتى فإننا على تمام الأهبة واليقظة ، وقد رتبتهم جميعا لحماية القصر . (**يخرج ويخرج جمال الدين خلفه**) .

جوهر : هل تأذنين لى يا مولاتى؟

شجر الدر : إلى أين ؟ ابق معنا .

جوهر : سأبحث عن جثة سيدى فأحملها إلى داره ، فما ينبغى أن تبقى ملقاة فى الطريق .

شجر الدر : (**فى تأثر شديد**) خيرا تصنع يا جوهر . اذهب ثم عد إلىّ لتخبرنى ماذا فعلت . مع السلامة يا جوهر .

(**يخرج جوهر وتهم ناعسة أن تلحق به ولكنها تتراجع**)

شجر الدر : ما خطبك يا ناعسة ؟

ناعسة : هممت أن أسأله عن أحمد لعله يعرف شيئا عنه ، ولكن ....

شجر الدر : لا يا بنيتى .. فى مصابه هذا لا ينبغى أن نسأله عن غير سيده .

(**يشرق ضوء النهار شيئا فشيئا**)

(تسمع جلبة شديدة من خارج سور القصر ، فتخف شجر الدر وناعسة إلى الشباك)

(يسمع دق شديد على السدة الخارجية وصوت تحطيم)

(يدخل جمال الدين) .

شجر الدر : ما هذا يا جمال الدين؟ هل جاء العدو ؟

جمال الدين : نعم يا سيدتى .. إنهم يحاولون اقتحام السدة ، ولكن اطمئنى ، إننا لهم بالمرصاد . **(يقف بجانبها على الشباك)**

شجر الدر : من ذاك الذى يتسلق السور؟

جمال الدين : هذا سيف الدين قطز .

شجر الدر : **(صوته من الفناء)** كم عددهم يا قطز ؟

قطز : **(صوته)** حوالى سبعين فارسا . هل أفتح لهم السدة ؟

أيبك : افتح ، استعدوا يا رجال .

ناعسة : وى ! قطز فتح السدة ! دخل فرسان العدو !

(جلبة خيولهم فى الفناء)

(يسمع عويل النساء من داخل القصر فتستشيط شجر الدر غضبا وتدنو من الباب الأول فتصيح فيهن) :

شجر الدر : ما هذا الصياح والعويل؟ يا جوارى السوء اسكتن وإلا ألقيت بكن إلى العلوج **(ينقطع العويل فجأة وتنقطع الجلبة فى الفناء وتعود شجر الدر إلى موقفها من الشباك)**

شجر الدر : ما بالهم وقفوا عن القتال؟

جمال الدين : سيف الدين قطز تحدى أميرهم أن يبارزه .

شجر الدر : والسدة مغلقة ، من الذى أغلقها؟

جمال الدين : الدرويش الخائن الذى جاء معهم ..

شجر الدر : أين هو؟

جمال الدين : هو ذاك واقفا خلفهم بجنب السور . ها هو ذا أحدهم قد برز لسيف الدين قطز!

ناعسة : شرعا يتبارزان!

(تسمع جلبة المبارزة وقعقعة السيفين ويتابع الثلاثة المبارزة فى حماسة واهتمام)

أصوات : **(تتردد بين حين وآخر من الجانبين)** مرحى يا قطز! إيه يا قطز! برافو يا كونت دارتوا! برافو!

ناعسة : دارتوا! هذا صديق ... هذا الشقيق الأصغر لملك الفرنج .

شجر الدر : **(ترفع يدها فى حماسة بالغة)** اضربه يا قطز! **(فى خيبة أمل)** ويل له! لماذا ضيع هذه الفرصة؟

جمال الدين : يخيل إلىّ يا مولاتى أن سيف الدين يداوره ولا يريد أن يقتله .

شجر الدر : لماذا؟

جمال الدين : لا أدرى لماذا .

(يسمع دق شديد على السدة الخارجية مرة ثانية) .

صوت : **(من خارج السدة)** ويلكم أنا بيبرس! افتحوا لنا السدة ، أنا بيبرس .

جمال الدين : الحمد لله . هذا بيبرس وجماعته قد جاءوا للنجدة . عن إذنك يا مولاتى لأبعث من يفتح السدة **(يخرج منطلقا)** .

ناعسة : انظرى يا ستى! الدرويش يزحف ليفتح السدة!

شجر الدر : لعله يريد أن يحرسها لئلا تفتح .

ناعسة : لا ياستى ... ها هو ذا يعالج المزلاج ليرفعه .

دارتوا : (**صوته**) اترك السدة يا أحمد ، لا تفتحها !

أحمد : (**صوته**) يا كونت دارتوا ، لا ينبغى أن نبقى كالفيران فى المصيدة ، يجب أن نفتحها .

شجر الدر : هذا أحمد يا ناعسة ، هذا الدرويش هو أحمد !

ناعسة : أجل يا ستى هذا صوته ، هو بعينه ، الله ! فتح السدة ! **(تسمع جلبة الداخلين الجدد)** .

بيبرس : (**صوته**) الآن سنغلق عليكم الباب من جديد .

شجر الدر : هذا بيبرس يحاول غلق السدة .

ناعسة : أين اختفى أحمد ؟ لم نعد نراه .

شجر الدر : الكند ترك المبارزة وتصدى لبيبرس ! أهوى بسيفه على بيبرس ! الله طار سيفه من يده !

ناعسة : بل طارت يده مع سيفه ! بضربة من قطز !

شجر الدر : (**فى حماسة بالغة**) إى والله ، اقتله يا قطز ! أجهز عليه !

قطز : (**صوته**) الله أكبر ! قتلت أخا الفرنسيس !

أصوات : الله أكبر ! الله أكبر !

بيبرس : (**صوته**) وقد أغلقت السدة عليهم فلا تبقوا منهم على أحد !

(تشتد الجلبة وتختلط الأصوات من قعقعة السيوف وصرخات المصابين وحمحمة الخيل ووقع حوافرها فى المطاردة ، ثم يخفت ذلك شيئا فشيئا ، ثم يعلو الهتاف

بصوت واحد) :
الله أكبر ! الله أكبر .

بيبرس : (**صوته**) هيا بنا الآن لنجدة إخواننا فى الميدان ، هيا إلى البحر الصغير ! إلى النضال يا أبطال ، إلى القتال .

ناعسة : (**تلتفت إلى الباب**) انظرى يا ستى . هذا أحمد . (**يدخل أحمد فى زى أولاد البلد**) .

شجر الدر : أين زى الدراويش الذى كان عليك يا أحمد ؟

أحمد : أو قد عرفتمونى ؟

ناعسة : نعم لما نادوك باسمك .

أحمد : قد خلعته يا مولاتى تحت .

شجر الدر : بهذه السرعة ؟

أحمد : بحكم المهنة يا مولاتى (**يتقدم إلى شجر الدر فيقبل يدها**) مولاتى أهنئك بهذا النصر .

شجر الدر : الحمد لله . إنما النصر يوم أن يتم طردهم جميعا من البلاد .

أحمد : هذا أوله ، وسيتم كله إن شاء الله كما رسمه قائدنا الشهيد ، أعظم الله أجرك فيه .

شجر الدر : أنا حزينة عليه يا أحمد .

أحمد : لا تحزنى يا مولاتى ، فقد أكرمه الله بالشهادة وحقق له ما أراد لوطنه .

بيبرس : (**صوته**) إلى القتال يا أبطال ، إلى القتال . (**يسمع انطلاق الخيول من الفناء**) .

شجر الدر : قاتلهم الله ، ما شمروا للقتال إلا بعد ما علموا بمصرعه .

أحمد : رحمة الله عليه . كان يعلم ذلك حق العلم . معذرة يا مولاى ، أريد أن أفضى إليك بأمر هام قبل أن يجىء أحد عندك .

شجر الدر : ماذا عندك ؟

أحمد : واحد من أشراف الصليبيين أنقذته من الموت وأخفيته فى حظيرة الغنم تحت ، ولا أريد أن يعلم بأمره أحد .

شجر الدر : ويلك يا أحمد ! ما حملك على هذا الفعل ؟

أحمد : أريد أن أعود به سالما إلى معسكرهم حتى لا يرتابوا فى إخلاصى لهم بعد الذى كان .

ناعسة : أو تريد أن تعود إليهم بعد ؟

أحمد : نعم . إن مهمتى لم تنته بعد .

ناعسة : ألا تخشى أن يقتلوك بعد الذى كان منك اليوم ؟

أحمد : هذا الصليبى الذى معى سينفى عنى كل اتهام أو ريبة .

ناعسة : لكن ...

شجر الدر : دعيه يقوم بواجبه يا ناعسة .

أحمد : مريها يا مولاتى تحضر لى ملاءتين وبرقعين وخفين مما تلبسه الجوارى عندكم ، لنرتديها أنا والصليبى ثم ننسل من الباب الخلفى .

شجر الدر : حسبك الله يا أحمد ! اذهبى يا ناعسة فاطلبى ذلك من أم بشير القهرمانة . (**تخرج ناعسة**) ترى ماذا يجرى هناك فى الميدان ؟

أحمد : اطمئنى يا مولاتى ، فالمماليك قد تحمسوا للقتال كما رأيت ،

والأهالى كذلك قد استعدوا فى الشوارع والحارات بالسكاكين والسواطير والفئوس والهراوات وأناشيط الحبال، ومن سطوح المنازل بالزيت المغلى والطوب والحجارة وكل ما تصل أيديهم إليه.

(تعود ناعسة ببقجة فتعطيها لأحمد، فيفتحها أحمد ليرى ما بها ثم يعيد عصبها) .

شجر الدر : هذا هو المطلوب؟

أحمد : نعم .. إلى اللقاء يا مولاتى فى خير. افسحى لى الطريق يا ناعسة. **(يتوجه وناعسة نحو الباب الأول)** .

شجر الدر : متى نراك يا أحمد؟

أحمد : قريبا يا مولاتى إن شاء الله. **(يخرج هو وناعسة)** .

شجر الدر : **(تتنهد)** واحسرتاه عليك يا فخر الدين.

(يدخل عز الدين أيبك وجمال الدين) .

أيبك : **(فى شىء من الزهو)** أرأيت يا سيدتى كيف قضينا عليهم جميعا فلم ينج منهم أحد؟

شجر الدر : **(فى قلة احتفال)** الحمد لله..

جمال الدين : وجاءتنا أنباء من الميدان بأن القتال لا يزال حامى الوطيس على طول الشط، وأن ملكهم الفرنسيس نفسه قد اعتصم مع رجاله بجديلة.

شجر الدر : أو قد احتلوا جديلة؟

جمال الدين : نعم.

شجر الدر : لو كنتم رابطتم على الشط كما أمركم قائدكم الشهيـ

لما استطاعوا أن يأخذوا جديلة منكم .

أيبك : ثقى يا سيدتى أننا سنستردها من أيديهم قبل غروب شمس اليوم ، أو قبل طلوع شمس الغد على الأكثر ، فالهزائم تلاحقهم فى كل مكان .

جمال الدين : حتى الذين اعتصموا منهم بشوارع المدينة وأزقتها ، وهم عدد كبير ، قد فتك بهم الأهالى فلم يرجع منهم أحد .

شجر الدر : الحراشفة هيه ؟ الحمد لله إذ شهدتم الآن بفضل الحراشفة .

(يعتريهما خجل فيسكتان)

(يدخل جوهر الفخرى) .

شجر الدر : أهلا بجوهر . **(باهتمام)** هل وجدت جثة مولاك يا جوهر ؟

(يتغير وجها أيبك وجمال الدين) .

جوهر : **(فى بكاء)** نعم يا مولاتى .. وجدتها مقطعة ممزقة .

شجر الدر : لا حول ولا قوة إلا بالله . واستطعت أن تحملها إلى داره ؟

جوهر : حملتها يا مولاتى إلى بيت صهره ، لأن داره قد نهبها مماليكه الخونة فلم يتركوا فيها شيئا .

أيبك : قبحهم الله .. أليس لسيدهم عندهم مقام ؟

شجر الدر : **(معرضة عن كلام أيبك)** ويل لهم كيف اجترأوا على ذلك ؟

جوهر : **(تتغير لهجته من رقة البكاء إلى صرامة التحدى)** بالتواطؤ يا مولاتى مع بعض الناس !

شجر الدر : أعرفهم يا جوهر ، تبا لهم ، أما كفاهم ما آذوه فى حياته

حتى يسيئوا إليه بعد مماته ؟ والله لقلامة ظفره أفضل منهم جميعا ، والله لينتقمن الله له منهم .

(يربد وجها أيبك وجمال الدين) .

جوهر : إن كنت تعزينه يا مولاتى فابسطى حمايتك على دوره وأملاكه فى القاهرة ، فإنى أخشى أن يتناهبوها أيضا فلا يتركوا شيئا لأهله وورثته .

شجر الدر : اطمئن يا جوهر ، فسأكتب إلى نائب السلطنة فى القاهرة أن يتولى حمايتها بنفسه حتى تقسم على ورثته .

جوهر : أبقاك الله يا مولاتى وأدام عزك وعلاك . **(يسمع حس موكب قادم من بعيد وهو يردد نشيدا حماسيا لا يتضح الآن إلا صداه) .**

شجر الدر : ما هذا ؟ **(تخف ناحية الشباك فلا ترى شيئا)** من يعلم لى علم هذا الموكب ؟

أيبك : أنا يا سيدتى . **(يخرج منطلقا) .**

جمال الدين : لعل عساكرنا انتصرت فى الميدان يا مولاتى وقضت على الصليبيين .

شجر الدر : قلت آنفا إن الفرنج احتلوا جديلة فلا يعقل أن يتخلوا عنها بهذه السرعة .

(تدخل ناعسة فرحة) .

ناعسة : هذا يا ستى موكب الشعب وهم يحملون الأعلام ورءوس الفرنج على عيدان .

شجر الدر : من أين رأيتهم ؟

ناعسة : من السطح فوق .

شجر الدر : (**فى عتاب**) ويلك ما الذى صعد بك إلى السطح ؟

ناعسة : كنت يا ستي أرقب الجاريتين اللتين خرجتا من عندنا ، فإذا الموكب قادم ..

شجر الدر : صه (**تتسمع للنشيد الذى اتضح بعض الاتضاح**) .

قتلنا رجالك يا فرنسيس
ودسنا جلالك يا فرنسيس

(**يعود أيبك**) .

أيبك : هذا يا سيدتى ...

شجر الدر : موكب الحراشفة يا عز الدين ؟

أيبك : نعم .

شجر : مر بفتح السدة لهم ليدخلوا فناء القصر .

أيبك : لكن يا سيدتى ...

شجر الدر : أريد أن أراهم .. افعل ما أمرتك ، أسرع .

أيبك : أمرك يا سيدتى . (**يخرج**) .

(**يزداد النشيد اتضاحا كلما اقتربوا من القصر**) .

ناعسة : يا له من نشيد جميل .

شجر الدر : عرفت يا ناعسة ماذا يقولون ؟

ناعسة : قتلنا رجالك يا فرنسيس
ودسنا جلالك يا فرنسيس

شجر الدر : وماذا بعد ذلك ؟

ناعسة : غير واضح يا سيدتى .. لا أستطيع أن أتبينه .

جوهر : أنا تبينته يا مولاتى .

أردت الكنانة فكانت وبالك
ورمت المكانة فأفنيت آلك

شجر الدر : جميل، جميل .

ناعسة : (**تنظر من الشباك**) ها هم يا ستى يفتحون لهم السدة .

جوهر : عن إذنك يا مولاتى سأنضم إليهم .

(**يخرج منطلقا**) .

(**تهرع شجر الدر ناحية الشباك ، ويتبعها جمال الدين فى شىء من التثاقل**) .

ناعسة : ها هم أولاء يدخلون .

(**تسمع جلبة دخول الموكب إلى الفناء**) .

شجر الدر : (**فى نشوة وإعجاب**) يا لله ، من أين اصطادوا كل هذه الرءوس؟

جمال الدين : (**فى لهجة من يريد التهوين من هذا العمل**) كانوا متربصين لهم فى منعطفات الشوارع والأزقة !

شجر الدر : والله إنهم لأبطال ، صه : لنستمع ماذا يقولون .

الجمع : قتلنا رجالك يا فرنسيس
ودسنا جلالك يا فرنسيس

القائد : قتلنا رجالك ودسنا جلالك
فعد إن بدالك تجدنا حيالك

شجر الدر : ناعسة خذى المفتاح وأحضرى عشرة أكياس من الذهب .

ناعسة : (**تأخذ المفتاح**) حالا يا ستى . (**تخرج منطلقة**) .

الجمع : يا فرنسيس

قتلنا رجـــالك يا فرنسيس

ودسنا جلالك يا فرنسيس

القائد : أردت الكنانة فكانت وبالك

ورمت المكانة فأفنـــيت آلك

الجمع : يا فرنسيس

قتلنا رجـــالك يا فرنسيس

ودسنا جلالك يا فرنسيس

القائد : فغادر حمانا وقوض رحالك

وإلا فمنـــــا ستلقى نكالك

الجمع : يا فرنسيس

قتلنا رجـــالك يا فرنسيس

ودسنا جلالك يا فرنسيس

القائد : ستفنى رجالك وتخسر مالك

وتندب حالك وتبكى مآلك

الجمع : يا فرنسيس

قتلنا رجـــالك يا فرنسيس

ودسنا جلالك يا فرنسيس

(**تعود ناعسة ببعض الأكياس ثم تخرج لتحضر الباقى**) .

شجر الدر : (**ترفع سجف الشباك حتى تطل على الجمع**) يا حماة المنصورة .. يا أبطال الشعب .. لله دركم خذوا هذا الذهب حلالا لكم . (**تنثر الأكياس واحدا بعد واحد ، وتعود**

ناعسة بباق الأكياس فتنثرها شجر الدر أيضا) .

الجمع : (**تتعالى أصواتهم**) : عشت يا شجر الدر ! تعيشين لنا يا شجر الدر ! عشت يا أم خليل ! تعيشين لنا يا أم خليل .

شجر الدر : (**تعود إلى مناداتهم**) وبطلكم الشهيد فخر الدين، ألا تحيونه بكلمة؟

(يسود الصمت هنيهة ثم يرتفع صوت القائد) .

القائد : يا فخر الدين.

الجمع : يا فخر الدين.

القائد : يا فخر الديـن سمعنـا لك .

الجمع : يا فخر الدين .

القائد : من أهـل البغـي ثأرنـا لك .

الجمع : يا فخـر الديـن . يا فخـر الديـن

القائد : إن رحت فقد خلّـفت لهم .

الجمع : يا فخر الدين .

القائد : من قلب الأمـة أشبـالك .

الجمع : يا فخـر الديـن . يا فخـر الديـن

القائد : وغـدا يأتي منـا بطـل .

الجمع : يا فخر الدين.

القائد : يبنـي للأمـة آمـالك .

الجمع : يا فخر الدين. يا فخر الدين.

القائد : فيوحِّدهـا ويسودُهـا .

الجمع : يا فخر الدين.

القائد : ويـــروِّح فى الأخـــرى بالك.

الجمع : يا فخر الدين. يا فخر الدين.

القائد : يا فخـر الديـــن هنيئــــا لك.

الجمع : يا فخر الدين.

القائد : مثـــواك الجنــــة أبقـــــى لك.

الجمع : يا فخر الدين. يا فخر الدين.

شجر الدر : **(تغيم عيناها بالدمع ولكن وجهها مبتهج سرورا وهى تتمتم) .**

مثواك الجنة أبقى لك يا فخر الدين.

(ينزل الستار)

المشهد الخامس

المنظر : داخل خيمة واسعة نصبت للملك لويس فى وسط المعسكر الصليبى بالشط الشمالى للبحر الصغير ، قماشها باللون الأحمر ولها ثلاثة أبواب : أحدها (**فى أقصى اليمين**) يؤدى إلى مخدع الملك ، والثانى (**فى أدنى اليمين**) يؤدى إلى أخبية إخوته وزوجاتهم ، والثالث (**فى أدنى اليسار**) يؤدى إلى خارج الخيمة .

فى صدر المسرح كرسى للملك وحوله مقاعد ، ومن فوقها فتحات مستديرة فى قماش الخيمة تطل على البحر الصغير . فى الجانب الأيسر مقاعد أخرى وفوقها فتحات أخرى أعلى من الفتحات التى فى الصدر يتسرب منها ضوء النهار .

(**الوقت أول الضحى**) .

(يرفع الستار فنرى لويس جالسا على كرسيه مطرقا كأنه فى هم ثقيل ، ثم ينهض قائما فى إعياء ومشقة ويطل من إحدى الفتحات كأنه يستنشق الهواء ، ثم يرتد عن الفتحة ويضم مفرج سترته كأنه يشعر ببرد) .

لويس : (**يتمتم فى حرقة وأسى**) اليوم عيدهم الكبير ونحن لا نجد ما نأكل . (**يرسم علامة الصليب ثم يدعو**) إلٰهى المسيح

آتنا معجزة تقلب عيدهم هذا عيدا لنا ومأتما عليهم ، فأنت قادر على كل شيء .

(ينتقل إلى إحدى الفتحات التى فى الجانب الأيسر فلا يكاد يطل منها حتى يرتد عابسا وهو يتمتم) أقبلت ، أقبلت الخاطئة **(يجلس على كرسيه)**

(تدخل مرجريت من الباب الأيسر) .

لويس : هيه اطمأن قلبك على صاحبك ؟

مرجريت : **(فى حدة)** هو صاحبك يا صاحب الجلالة قبل أن يكون صاحبى ، فتحفظ فى كلامك .

لويس : أنا لا أزوره فى سجنه مثلك .

مرجريت : لو كنت تحفظ الجميل لفعلت .

لويس : الجميل لهذا الجاسوس ؟

مرجريت : جاسوس لك على قومه .

لويس : بل جاسوس لهم علىّ .

مرجريت : هل لديكم برهان ؟

لويس : لدينا قرائن كافية .

مرجريت : قد درست قضيته بدقة وعناية فلم أجد دليلا واحدا يسوغ لكم أن تتهموه ، بله أن تحبسوه وتعذبوه .

لويس : يا عزيزتى ما كلفك أحد بالدفاع عنه .

مرجريت : يا سيدى لست بحاجة إلى تكليف من أحد . أنا لا أستطيع أن أرى ظلما شنيعا كهذا يرتكب أمامى فى حق إنسان برىء ثم أسكت . هذه قسوة وحشية .

لويس : لو بقيت يا عزيزتى فى دمياط حيث كنت لما عرضت شعورك الرقيق لرؤية مثل هذه القسوة .

مرجريت : قد علمت الآن أن حضورى قد ساءك .

لويس : وقد أدركت الآن أكثر من أى وقت آخر أننى كنت على حق إذ تركتك فى دمياط ولم أستصحبك معى .

مرجريت : (**فى سخرية باردة**) هل لك يا صاحب الجلالة أن تخبرنى بحقيقة غرضك من ذلك؟

لويس : (**يضطرب قليلا**) فيم هذا السؤال؟ قد شرحته لك من قبل. لم أشأ أن أعرضك لأخطار الحرب ، أو أرهق أعصابك بشهود ما فيها من قسوة .

مرجريت : لماذا إذن لم تتركنى فى فرنسا؟

لويس : ليس من اللائق أن يشترك إخوتى بزوجاتهم وتتخلفى أنت .

مرجريت : إذن فلماذا حبستنى فى دمياط من دونهن؟

لويس : حبستك؟ أتسمين رعايتى لك حبسا؟ لقد كنت فى حاجة إلى الراحة لهذا الجنين الذى فى بطنك .

مرجريت : لا تغالطنى . ما كنت إذ ذاك قد علمت بعد أننى حامل .

لويس : على أى حال كنت أريد لك السلامة والراحة فى دمياط ، وكان ينبغى أن تشكرينى على ذلك .

مرجريت : علام أشكرك؟ أعلى أن تركتنى فى وحدة قاتلة هناك ، ليس عندى غير حارس فى الثمانين رتبّته عينا علىّ لينقل أخبارى إليك؟

لويس : ما أجحدك للجميل ، أنا عينته ليخدمك ويحرسك .

مرجريت : يحرسنى مماذا؟

لويس : مما عسى أن يروع المدينة من هجمات العدو الخاطفة.

مرجريت : أيستطيع شيخ فى الثمانين أن يحمينى من ذلك؟

لويس : (**يضيق بنقاشها ذرعا**) أوه، أكنت تودين أن يكون حارسك شابا فى الخامسة والعشرين؟

مرجريت : ما كنت أريد أن يحرسنى أحد ألبتة. كنت أريد أن تثق بأمانتى وشرفى فذلك هو حارسى الوحيد.

لويس : لو لم أثق بك ما تركتك هناك وحدك.

مرجريت : يا صاحب الجلالة قد طلبت منك أن تصدقنى، فينبغى أن تكون لديك الشجاعة لتقول الصدق.

لويس : ماذا تريدين أن تقولى؟

مرجريت : إنك حبستنى فى دمياط لتحول بينى وبين عشيقى چان دى بوا.

لويس : (**فى حقد**) عشيقك؟!

مرجريت : هكذا هو فى زعمك.

لويس : هبينى قصدت ذلك حفظا لسمعتى وسمعتك، فأى لوم علىَّ؟ أنا حر فيما أفعل.

مرجريت : أنت حر فيما تفعل، هذا حق. ولكن يجب ألا تجبن عن الاعتراف بهذه الحقيقة.

لويس : هأنذا قد اعترفت بها، فماذا تريدين بعد؟

مرجريت : كان عليك بعد أن تخلصت من ذلك الجندى المسكين أن تستقدمنى إليك.

لويس : كذبت . أنا ما تخلصت منه . اشترك فى معركة من المعارك فقتل فيها ، فما ذنبى ؟ لو كنت أستطيع أن أدفع الموت عن أحد لدفعته عن الكونت دارتوا شقيقى الحبيب .

مرجريت : لا تحاول أن تداورنى . قد عرفت كل شيء.أنت الذى أرسلت دى بوا فى مهمة انتحارية .

لويس : ويلك ! كل من يشترك فى حرب فهو عرضة للموت . لقد قتل من جيشنا ألوف غيره وبينهم كثير من الكونتات والبارونات ، فلم لا أسأل إلا عن هذا الشويعر ؟

مرجريت : لأن لهذا الشويعر شأنا عندك غير شأن الآخرين .

لويس : إن كان له شأن فعندك أنت لا عندى .

مرجريت : بل عندك أنت يا صاحب الجلالة . لقد حرصت على كتمان موته دون الآخرين ، فلم يرد اسمه فى أية قائمة من قوائم القتلى الذين سقطوا فى المعارك .

لويس : أو كنت تتتبّعين تلك القوائم ؟

مرجريت : نعم .

لويس : لو كنت أعلم ذلك لأدرجت اسمى أنا فى إحداها حتى تطمئنى على حياة صاحبك !

مرجريت : حاشاى يا صاحب الجلالة . أنت زوجى ومولاى ومليكى ، فشعرة منك عندى بألف چان دى بوا .

لويس : إذن فعلام كل هذه الضجة من أجله ؟

مرجريت : لأنى لا أحب لزوجى الملك أن ينزل عن شمائل الملوك .

لويس : وما شمائل الملوك عندك ؟

مرجريت : أن يربأوا بأنفسهم عن الكذب ، فإنما يلجأ إليه الضعيف والجبان .

لويس : كنت أريد أن أجنبك ألم الفجيعة فى صاحبك ، ولكن ما دمت تريدين الحقيقة فهاكها سافرة . أجل أنا قتلت چان دى بوا وأمرت بحذف اسمه من قوائم القتلى فهل رضيت ؟

مرجريت : الآن حمّلتنى إثما سيظل يعذب ضميرى إلى الأبد (**تنشج باكية**) .

أنا قتلت دى بوا لا أنت .. أنا قتلته ، أنا قتلته .

لويس : (**يزفر زفرة حرى من الغيظ ، ولكنه يرى بكاءها فيكظم غيظه ويدنو منها مواسيا**) يا عزيزتى لا أنت قتلتيه ولا أنا قتلتُه . تلك مشيئة الله اختار لهذا الشاعر الاستشهاد فى سبيل الصليب ليزيل ما بينى وبينك من الجفوة . فيعود الصفاء بيننا كما كان . أنا فى حاجة إليك يا مرجريت .. ألا ترين ما أنا فيه اليوم ؟ جسمى عليل وقلبى حزين ، وجيشى يعانى الجوع واليأس ويرقب سوء المصير ، فأولينى بحياتك شيئا من حبك وعطفك .

مرجريت : (**تمسح الدمع من عينيها وتتجلد**) تنشد الحب والعطف يا سيدى وليس فى قلبك ذرة من الحب والعطف .

لويس : أقسم لك يا عزيزتى ما عاد فى قلبى غير العطف والرثاء لذلك الشاعر المسكين .

مرجريت : الموتى تعطف عليهم ولكن لا تعطف على الأحياء .

لويس : كانت تلك زلة منى فى حق ذلك الشاعر المنكود الحظ ،

وقد ندمت عليها ولن أعود لمثلها أبدا .

مرجريت : فما بال هذا المسكين الذى حبسته منذ أكثر من شهر ، وما تفتأ تعذبه بالسياط كل يوم ليعترف لك بذنب ما جناه ؟ هذا الذى ظللت تعنِّفنى أمس أكثر من ساعة لأنى حملت إليه قليلا من الطعام أسد به الجوع الذى كاد يقضى عليه ؟

لويس : ما عنَّفتك يا عزيزتى إلا لأنك أخذت له من طعامى ، وما عندنا إلا قليل ونحن أولى به منه .

مرجريت : أتخاف على طعامك يا سيدى أن ينفد ؟ إذا نفد الذى عندك فستهدى لك مدام دى بارى غيره من كسبها الحلال !! ..

لويس : (**غاضبا**) ماذا تريدين أن تقولى عن هذه التقية الصالحة ؟

مرجريت : لا أريد أن أقول عنها شيئا ، فأنت لا تصدق فيها كلام أحد ، ولكنى أريد أن تطمئن على الطعام الجيد الذى لا ينفد من عندها أبدا ؟ كأنما هى وزيرة التموين فى المعسكر !

لويس : الذين يترددون عليها من المؤمنين والمؤمنات يهدون إليها من نصيبهم ، تقربا إلى الله وحبا فى السيد المسيح .

مرجريت : (**فى سخرية قاتلة**) صحيح ؟

لويس : (**يشتد غضبه**) مرجريت .. إنى أسمح لك بكل شىء إلا أن تقدحى أمامى فى الصالحين والصالحات .

مرجريت : (**فى حدة**) وأنا يا سيدى أقبل منك كل شىء إلا أن تخدع بمثل هذه الفاجرة فتظنها قديسة .

لويس : (**يلين لهجته قليلا**) كانت فا .... فيما مضى ، ولكنها اليوم فاجرة تقية .

مرجريت : تجمع المؤمنين والمؤمنات هه؟

لويس : (فى حدة) ويلك ألم تسمعى قط بسيرة مريم المجدلية؟

مرجريت : مريم المجدلية .. اتق الله يا سيدى، فتلك من حواريات السيد المسيح لا يصح أن تقرنها بهذه القوادة!

لويس : القوادة؟!

مرجريت : هذا نعتها الصحيح.

لويس : ما سمعت عنها كلمة سوء إلا منك.

مرجريت : ممن تنتظر أن تسمع الحقيقة؟ أمن أولئك الذين يترددون عليهم ولهم عندها مآرب؟

لويس : وفرسان المعبد ورجال الدين أتتهمينهم أيضا؟

مرجريت : معاذ الله أنا لا أتهم أحدا. لعلهم مثلك يا سيدى يحسبونها مجدلية جديدة. ثم إنهم يجدون أفضل الطعام عندها، ويسمعون الإنجيل والمزامير، فماذا يشكون؟

لويس : (بعد صمت يسير) إن كان ما تزعمينه هذا صحيحا..

مرجريت : فى وسعك يا سيدى أن تتحرى الأمر بنفسك بل هذا من واجبك.

لويس : (فى حيرة وذهول) إن كان هذا صحيحا...

مرجريت : لا شأن لى بمدام دى بارى الآن. تحر أمرها على مهل. عليك أولا أن ترفع الظلم عن هذا المسكين..

لويس : (شارد الفكر بعد) أحمد؟

مرجريت : نعم. أطلقوا سراحه ليأكل خارج معسكركم. أليس هو الذى كان يهرب لكم الطعام من عند المسلمين؟ أفهذا

جزاؤه اليوم أن تحبسوه وتجيعوه ؟

لويس : (**يتخلص من شرود فكره**) لقد اتضح لنا أنه كان يخدعنا ويخوننا .

مرجريت : إذن فحاكموه ، فإن ثبت عليه شيء فاقتلوه وأريحوه .

لويس : لكننا بحاجة إلى الأسرار التي يطويها فى صدره ، ولن نقتله حتى نستخرجها أولا منه .

مرجريت : هذا الذى تفعلونه لا يفعله غير الجلادين . أثبتوا التهمة عليه أولا ، ثم افعلوا به بعد ذلك ما تشاءون .

لويس : يا عزيزتى هذه تهمة يعسر علينا إثباتها ، لأنها تتصل بالجاسوسية ومدارها دائما على السر والكتمان .

مرجريت : إن كان عسيرا عليكم إثباتها ، فعسير عليه أيضا نفيها عن نفسه .

لويس : (**بعد صمت يسير**) فما السبيل إذن إلى معرفة الحقيقة ؟

مرجريت : لا سبيل غير أن تحضره هنا عندك وتستمع إلى دفاعه عن نفسه بروح العدل والإنصاف ، فما يدريك لعله يستطيع أن ينفعكم بعد فى المستقبل .

لويس : (**بعد صمت يسير**) صدقت والله . (**يدنو من الباب الثانى فينادى**) كونت بواتييه ! كنت أنجو ! كونت بواتييه !

صوت : نعم يا سيدى .

لويس : هلما إلى .

(**يدخل بواتييه ثم أنجو**) .

لويس : اذهب يا كونت بواتييه فأحضر لى هذا السجين الذى اسمه أحمد .

بواتييه : سمعا يا سيدى . (**يخرج من الباب الثالث**) .

لويس : اجلس يا كونت أنجو لتحضر معنا محاكمته .

أنجو : (**يجلس**) محاكمته ؟ لا فائدة يا سيدى من ذلك . إنه سيسمعنا نفس الأقوال التى يرددها .

مرجريت : يا كونت أنجو إن مولانا الملك قد قرر محاكمته ، فليس لنا أن نعترض .

لويس : أجل نريد اليوم إما أن نعدمه أو نطلق سراحه .

أنجو : أنت تعرف يا سيدى رأيى فيه .

(يدخل بواتييه يسوق أحمد وهو فى حالة سيئة ، وقد ظهرت آثار التعذيب فى وجهه والقيد فى يديه) .

لويس : (**تومئ له مرجريت إلى القيد فى يدى أحمد**) حلوا القيد عنه .

(يحل بواتييه عنه القيد) .

مرجريت : مره يا سيدى بالجلوس .

لويس : (**لأحمد**) اجلس .

أحمد : (**يجلس**) شكرا يا مولاى .

(تظهر بياتريس وخلفها چان على الباب الثانى) .

لويس : (**يلمحهما**) ادخلا إن شئتما .

(تدخلان فتجلسان . بياتريس متطلقة الوجه فى حلة فاخرة وچان مكتئبة فى ثياب الحداد) .

لويس : (**ينظر إلى أحمد نظرة قاسية**) ألا تريد أن تعترف ؟

أحمد : قد اعترفت يا مولاى بكل شيء .

لويس : أقصد بالخيانة .

أحمد : ما خان أحد قومه يا مولاى أبلغ من خيانتى لهم .

لويس : بل كنت تخوننا نحن .

أحمد : مولاى إن كنتم تريدون قتلى فأرسلونى إلى قومى ، فهم أولى بعقوبتى منكم .

(**يشير إلى أنجو ليتولى مناقشته**) .

أنجو : أنت الذى أحضرت إلينا ذلك البدوى ؟

أحمد : نعم .

أنجو : فأين هو الآن ؟

أحمد : يا سيدى الكونت أنا محبوس هنا عندكم ، فكيف أعرف أين هو الآن ؟

أنجو : لماذا لم تحضره إلينا عندما رأيت الملك قد وافق على إبحارى إلى الإسكندرية ؟

أحمد : ما عثرت على هذا البدوى إلا ذلك اليوم .

أنجو : كيف عثرت عليه ؟

أحمد : كان همى أن تنتهوا من المنصورة بأسرع وقت ، قبل أن يحضر هذا السلطان الجديد توران شاه وأنتم تعلمون خوفى منه . وتلك أنانية منى لا أستطيع أن أنفيها عنى . ولكن الكونت دارتوا ، (**يخالط صوته البكاء**) ذلك الكونت الذى كان يحبنى وكنت أحبه أكثر من أى واحد فيكم ، كان على هذا

الرأى مثلى . وقد تألم كثيرا من عدول الملك عن رأيه إلى رأيك يا سيدى الكونت حتى قال لى : وحياة المسيح إن فعلوها يا أحمد فلأعودن إلى فرنسا . فأظلمت الدنيا فى عينى وانطلقت أجول هنا وهناك فى مضارب البدو على ساحل البحر الصغير ، حتى عثرت على ذلك البدوى فأحضرته وأنا أكاد أطير من الفرح .

(يمسح لويس دمعة ترقرقت فى عينيه)

أنجو : أنت كنت مع الكونت دارتوا حين عبروا المخاضة ؟

أحمد : نعم .

أنجو : لماذا لم تنهه عن التقدم قبل أن يتكامل عبور بقية الفيلق ؟

أحمد : قد نهاه من هم أفضل منى من فرسان الداوية وغيرهم فلم يسمع لهم ، أفكان يسمع لى ؟ اسألوا من بقى حيا من فرسان الداوية كيف اختصم معهم الكونت وعيَّرهم بالجبن ، حتى كادوا يفتكون به لولا حكمة مقدمهم الأخ جيل إذ قال لهم : هلموا يا إخوانى لنثبت للكونت أننا لسنا جبناء .

لويس : **(قد غلبه التأثر فلم يستطع أن يمنع نفسه من الكلام)** يرحمه الله ، أنا أيضا قد أمرته بنفسى وشددت عليه فعصى أمرى .

أنجو : وأنت الذى دللته على طريق القصر ؟

أحمد : نعم .

أنجو : لم فعلت ذلك ؟

أحمد : أمرنى أن أدله أفكنت أجرؤ يا سيدى الكونت أن أمتنع ؟

ماذا كنتم تقولون عنى لو فعلت ؟ ثم إن القصر ظاهر فى البلد لا يعسر على أحد الاهتداء إليه ولو بغير دليل .

أنجو : أنت الذى أغلقت السدة عقب دخولكم فناء القصر ؟

أحمد : نعم . وهو الذى أمرنى بذلك فأطعته .

أنجو : أطعته وأنت تعلم أنكم ستقعون فى مصيدة .

أحمد : كلا يا سيدى الكونت . كان المدافعون عن القصر لا يزيدون علينا إلا بقليل ، فكان من الرأى أن نغلق السدة حتى لا يجيئهم مدد من الخارج .

أنجو : ولكنك ما لبثت أن فتحت السدة لما جاءهم المدد .

أحمد : يا سيدى الكونت إن الأمر ليس على هذا الوجه .

أنجو : (**فى قسوة وانتصار**) لقد ناداك الكونت دارتوا ألا تفتح فعصيته ، وعندنا شاهد على ذلك أتنكر شهادته ؟

أحمد : لا يا سيدى الكونت أنا لا أنكر ما وقع حقا ، ولو لم يشهد علىَّ به أحد .

أنجو : (**فى نشوة انتصاره**) فقل لنا الآن لماذا لم تطعه فى الثانية كما أطعته فى الأولى ؟

أحمد : عصيته فى الثانية مضطرا لأتيح له ولفرسانه فرصة النجاة بأنفسهم إذا اضطروا إلى ذلك . فقد تغير الموقف بمجىء المدد فأصبحنا قلة وهم كثرة . وأى مدد يا سيدى الكونت ! البطل بيبرس وجماعته ! جمرة عسكرهم كله !

أنجو : قد كنت تتوقع مجىء المدد إذ أغلقت السدة ، فلماذا أغلقتها ؟ لماذا لم تدعها مفتوحة حتى إذا جاءهم المدد كان

لجماعتنا فرصة النجاء بأنفسهم كما زعمت ؟

أحمد : هذا سؤال وجيه يا سيدى الكونت .

أنجو : فأجب عليه .

(تتعلق أبصار الحاضرين بأحمد مع اختلاف مشاعرهم نحوه) .

أحمد : كان المتوقع عندما اقتحمنا فناء القصر أن نشتبك فى الحال مع المدافعين ونلتحم معهم فى قتال حاسم . إذن لربما أبدناهم جميعا قبل حضور المدد واستولينا على القصر فتحصنا فيه . ولكن الكونت دارتوا ، (**ينشج باكيا مرة ثانية فينقطع عن الحديث**) .

أنجو : (**فى قسوة**) كمل حديثك . لا تحاول أن تقطعه بهذا البكاء الزائف ريثما تخترع حكاية من رأسك .

لويس : (**فى عتاب**) شارل ، لا تسخر من عاطفته على أخيك ، تكلم يا أحمد .

أحمد : (**يكفكف دمعه ويتجلد**) ولكن الكونت دارتوا كان ثملا بخمر النصر ، فلما أن سمع أحدهم يناديه إلى المبارزة حتى أمر فرسانه بالتوقف عن القتال ، فوقف الفريقان ينظرون إلى المتبارزين وهما يتصاولان ويتجاولان ، حتى خيل إلينا جميعا أننا فى حلبة مباراة لا فى ساحة معركة . واستمرت المبارزة برهة دون أن يتغلب أحدهما على الآخر ، إلى أن سمعت صرخة بيبرس من خارج السدة فنبهتنى إلى الخطر المحدق . وترددت قليلا ثم صممت على فتح السدة

فاندفعت لأفتحها ، فسمعت صوت الكونت ينهانى فلم أكترث له .

أنجو : وفتحت السدة ليدخل أولئك الأبطال فيقضوا عليه وعلى فرسانه ، ولا يبقوا منهم على أحد ؟ هذا كان قصدك .

أحمد : يا سيدى الكونت قد شرحت لكم قصدى ، وكان فى الإمكان وقد فتحت السدة على مصراعيها أن يتم ما قصدت إليه ، لولا أن الكونت دارتوا استنكف أن يفر ، فاضطر رجاله أن يثبتوا معه ، فكان الذى كان .

(**يغطى لويس وجهه من التأثر والحزن**) .

أنجو : لكنك أنت نجوت يا بطل الأبطال !

أحمد : أنا يا سيدى الكونت ما كنت أقاتل . كنت متنكرا فى زى درويش . سلوا رفيقى دى بوجو يشهد لكم بما ذكرت .

بياتريس : الكونت دى بوجو ! (**تند منها ضحكة فيسرى الضحك منها إلى بواتييه ثم مرجريت ثم لويس ثم أنجو نفسه ، ثم تضحك جان ضحكة مبتسرة سرعان ما وأدتها وعادت إلى عبوسها واكتئابها**) .

أنجو : (**يعود إلى صرامته**) اشرح لنا الآن كيف تسنى لك إنقاذه لو لم تكن على صلة بمن فى القصر ؟

أحمد : الكونت دى بوجو موجود . فاسألوه هو ؟ .

بياتريس : (**ضاحكة**) الكونتيس دى بوجــو ! الكونتــيس ! (**يضحك الآخرون**) .

أنجو : (**يغالب ضحكه**) قد سألناه ونريد أن نعرف الحقيقة

منك أنت .

أحمد : (**مالكا زمام نفسه**) لا حق لكم أن تضحكوا منه . لقد كان يقاتل ببسالة منقطعة النظير إلى ما قبل نهاية المعركة بقليل ، إذ صرعت جواده رمية سهم فوقع هو على الأرض قريبا من الشجرة التى كنت أختبئ وراءها ، فنظرت فلم أجد أحدا انتبه له لما شغلهم من نشوة النصر ، فجذبته وانسللت به إلى حظيرة غنم فى أسفل القصر ، فاختبأنا فيها .

بياتريس : (**ضاحكة**) حظيرة غنم !

(**يبتسم الآخرون ويومئ لها زوجها أن اسكتى**) .

أنجو : ومن أين جئت له بتلك الملابس الحريمية ؟ (**تنفجر بياتريس ضاحكة فينفجر الآخرون ضاحكين**) .

أحمد : (**وحده لم يضحك**) جاءتنى بها حبيبتى ناعسة من ثياب جوارى القصر . وقد ناشدتها أن تهرب معنا ولكنها خافت فلم تقبل . اسألوا الكونت دى بوجو ...

بياتريس : (**مقاطعة**) لو قبلت ناعسة هذه لانضم إلى معسكرنا ثلاث نسوة جدد !

(**يقهقهون ضاحكين**) .

لويس : (**يومئ لهم فى صرامة أن اسكتوا فيسكتون**) أحمد قد عفوت عنك .

أحمد : مولاى ... إنما العفو عن ذنب ارتكبته ، وأنا برىء .

لويس : فقد قضيت ببراءتك .

أحمد : شكرا يا مولاى . (**يثب نحو لويس**) دعنى أقبل يدك .

(يقبل يده) .

(يبدو على الجميع السرور ما عدا أنجو) .

مرجريت : نرجوك يا أحمد أن تسامحنا فيما كان ، وتعود معنا إلى سابق إخلاصك .

أحمد : مولاتى الملكة . ما دام سيدى الملك قد برأنى فقد نسيت كل شيء إلا سابق فضله علىّ . وأنا فى طاعته حتى النهاية .

أنجو : إن شئت أن تثبت إخلاصك للملك ، فأسعفنا فى الحال بقدر كبير من الطعام .

لويس : أجل يا أحمد فإن السفن أبطأت علينا من دمياط .

أحمد : أعطونى الأسلحة .

أنجو : الأسلحة ؟!

أحمد : لأقايضهم بها كالعادة .

أنجو : سنعطيك ذهبا .

أحمد : أو قد نسيت يا سيدى الكونت أنهم ما عادوا يقبلون الذهب منذ زمان ؟

أنجو : لكن ...

أحمد : اجمعوا لى من الأسلحة التالفة التى لم تعد صالحة عندكم ، فسأضحك بها عليهم .

لويس : اذهب به يا كونت أنجو فأعطه ما يريد .

أحمد : ومر لى يا سيدى بجوادين قويين .

چان : أعطوه ثلاثة أو أربعة !

لويس : أعطه يا كونت أنجو كل ما يريد .

چان : أسرع يا أحمد فى الحال، فى الحال!

(**يخرج أنجو وأحمد**) .

لويس : واركب أنت يا كونت بواتييه فاستطلع لنا أخبار السفن القادمة من دمياط.

بواتييه : سمعا يا سيدى . (**يخرج**) .

لويس : (**يتمتم**) ترى ماذا أخرها حتى اليوم؟

(**يرسم علامة الصليب ثم يخرج من الباب الأول فى صمت**) .

بياتريس : (**محاكية صوت چان**) أسرع يا أحمد! فى الحال، فى الحال! هل هذا يليق؟

چان : (**غاضبة**) يليق أو لا يليق ... ما شأنك أنت؟

بياتريس : لا يصح أن تظهرى له شرهك إلى الطعام ...

چان : شرهى إلى الطعام! أنا لم آكل منذ أسبوع غير التين المجفف .

بياتريس : عندك لحم الخيل فكليه .

چان : كلا لا آكل من لحم الجيف .

بياتريس : الجيف!

مرجريت : لا حق لك يا كونتس بواتييه .. هذا لحم يأكل منه الملك .

چان : ولو! كيف تقبله نفسى وأنا أرى جيف الخيول فى كل مكان؟

(**تنشج باكية**) آه يا للمصير التعس الذى نحن فيه!

بياتريس : اسمعى يا كونتس بواتييه . لماذا لا تذهبين إلى صاحبتك مدام دى بارى فتجدى عندها ما لذ وطاب؟

چان : كلا لن أذهب إليها .

بياتريس : ماذا يمنعك ؟

چان : حذرنى ألفونس منها ، وتوعدنى إن علم أننى ذهبت إليها مرة أخرى .

بياتريس : ومن أين له أن يعلم ؟ اذهبى إليها من ورائه .

چان : (**يغيظها ابتسام مرجريت لمعابثة أختها فتقول لبياتريس**) اذهبى أنت إن شئت ، فنحن فى تولوز لا نصادق أحدا أو نواده إلا إذا كان أزواجنا راضين عنه .

مرجريت : (**تدرك تعريضها بها**) معذرة يا كونتس بواتييه . هل تعنين أن الأزواج هناك هم الذين يختارون العشاق لزوجاتهم ؟

(**تقهقه بياتريس ضاحكة**) .

چان : ما هذا يا صاحبة الجلالة ؟

مرجريت : هذه بتلك !

چان : (**فى استخذاء**) أنا ما قصدت أى سوء ، ولكن استثارتنى إذ أشارت على بالذهاب إلى مدام دى بارى وهى تعلم أنها سيئة السمعة .

مرجريت : كنت تقولين عنها غير ذلك يا كونتس بواتييه .

بياتريس : ووجدتك فى قَرَم إلى الطعام الجيد ، وعندها هى الطعام الجيد !

چان : (**تعود إلى بكائها**) وا بؤساه ! نقاسى الجوع ولا يسمح لنا حتى بالشكوى منه !

مرجريت : (فى شىء من العطف) اصبرى قليلا يا كونتس بواتييه ، فعما قريب تأتينا الميرة من دمياط .

بياتريس : فتأكلين وتشبعين .

چان : ماذا يضمن وصول السفن إلينا ؟ سيعترضها العدو فيستولى عليها كما استولى من قبل على الاثنين والخمسين سفينة .

بياتريس : (مرتاعة) رب اكفنا السوء ! ألا تكفين عن تشاؤمك هذا الذى جر علينا الكوارث ؟ ماذا جرى لك ؟ لا نراك إلا عابسة أو شاكية . ما كنت هكذا من قبل .

چان : وأنت ما كنت بهذا النزق والعبث من قبل .

بياريس : أمرح وأتسلى .

چان : ونحن فى هذه المصيبة ؟

بياتريس : لِم لا ؟ ألا تستطيعين أن تفعلى مثلى ؟

چان : كلا لا أشتهى أن أكون كالبهلوانات والمهرجين . (تشير إلى حلة بياتريس) .

بياتريس : خيرا من أن تكونى كالبومة السوداء التى تنعق فى الخرائب . (تشير إلى ثياب چان) .

چان : لو كان عندك قليل من الذوق للبست السواد مثلنا حدادا على شقيق زوجك .

بياتريس : لبست السواد أسبوعين عليه ، وهذا يكفى .

چان : يكفى ! أنت أولى الناس بالحزن عليه !

بياتريس : (فى تحد مستتر) لماذا يا كونتس بواتييه ؟

چان : (فى خبث) ألا تعرفين لماذا ؟ لأنه كان يميل إليك .

بياتريس : (فى صراحة) لكنى ما كنت أميل إليه مثل غيرى !

چان : ماذا تعنين ؟

بياتريس : أعنى أن التى يميل إليها ليست أحق بالحزن عليه من التى تميل إليه !!

مرجريت : (تنهرهما) كفى ! لا يصح أن تتحدثا مثل هذا الحديث عن رجل مات .

بياتريس : هى التى بدأت .

چان : أنا ما قصدت أى سوء . إنما كنت ألومها على خلع السواد قبل الأوان .

مرجريت : إنها عروس بعد يا كونتس بواتييه .

چان : إذن فلتتركنا فى حالنا يا صاحبة الجلالة .

بياتريس : (تنسى غضبها سريعا وتعود إلى مزاحها ومعابثتها) أليس من واجبى أن أشركك معى فى شهر العسل ؟

چان : فى شهر عسلك المشئوم الذى قضيته فى قبرص ؟ تمتعى به لنفسك !

بياتريس : (ماضية فى مزاحها) على فكرة ، أنت تحبين العسل يا كونتس بواتييه ، فلماذا لم توصى أحمد أن يحضر لك قرصا من العسل ؟

چان : من فضلك يا كونتس أنجو أنا لم أعد أحتمل مزاحك .

بياتريس : ألا تعلمين أنه نحّال يربى النحل ؟

چان : (محتدة) أوصيه أنت أن يجىء بجيش من نحله لنحارب به المسلمين !!

بياتريس : (**تقهقه ضاحكة**) نكتة حلوة ! صارت البومة تنكِّت !

چان : (**تهب ثائرة**) بياتريس ! ابحثى لك عن لعبة أخرى تتسلين بها غيرى .

مرجريت : (**واقفة بقرب الباب الأول حيث قامت لتتفقد الملك**) صه .. الملك يصلى فلا ينبغى أن نشوش عليه .

چان : (**تعود إلى عبوسها وتطيرها**) يصلى !! إذن فلنتوقع كارثة جديدة تحل علينا ككارثة المخاضة !

بياتريس : يا قليلة الدين أين إيمانك الذى تتشدقين به ؟

چان : تركته فى تولوز !

بياتريس : عند بناتها اللاتى يتسلل إلى مخادعهن العشاق ؟

چان : (**غاضبة**) يا صاحبة الجلالة إن لم تكفى عنى أختك فلأشكونها إلى الملك .

بياتريس : إن فعلت لأخبرنه بما قلته الساعة عن صلاته .

مرجريت : (**واقفة تتطلع من إحدى الفتحات التى فى الجانب الأيسر**) صه ، هذا أحمد قد عاد ! (**تنهض بياتريس وچان فتتطلعان أيضا**) .

چان : عاد هكذا سريعا ؟ ماذا جرى ؟

بياتريس : (**لچان**) أطاع أمرك فأسرع !

مرجريت : (**لبياتريس**) ها هو ذا قد أقبل مع زوجك . سأخطر زوجى الملك . (**تخرج**) .

چان : وزوجى أين ذهب ؟

(**يدخل أنجو وأحمد من الباب الثالث**) .

أنجو : أين مولانا الملك ؟

بياتريس : موجود .. فى مخدعه .

چان : (متطيّرة) يصلى !

(يدخل لويس ومرجريت) .

لويس : ماذا وراءك يا أحمد ؟ أحضرت الطعام ؟

أحمد : اتفقت على الصفقة يا مولاى ولكنى لم أحضر شيئا بعد . سمعت نبأ أطار لبى . فرأيت أن أعجل إليك لأنذرك .

لويس : ماذا سمعت ؟

أحمد : إنهم أنزلوا سفنا جديدة فى بحر المحلة ، لتعترض سفنكم القادمة من دمياط .

جان : (تتمتم) يا للكارثة ! هذا ما توقعته من قبل .

لويس : (متضايقا) كونتس بواتييه اتركينا قليلا .. لا تشغلينا بتشاؤمك .

چان : (تنسحب نحو الباب الثانى وهى تتمتم) كل هذا من صلاتك . (تخرج) .

لويس : وماذا ترى يا أحمد؟

أحمد : ابعث يا سيدى من يحميها .. ابعث فصيلة صوب دمياط لتحميها فى الطريق .

لويس : أجل . يجب إنقاذها بأى سبيل .

أحمد : عن إذنك يا مولاى .. سأنطلق الآن لإحضار الطعام .

لويس : مع السلامة . (يخرج أحمد) .

مرجريت : لو لم تحبسوه لكان أنذركم من مدة .

لويس : (**لأنجو**) كل هذا منك يا شارل .
أنجو : يا سيدى كان هذا رأيك أيضا فيه .
لويس : عليك الآن أن تنطلق بكوكبة من الفرسان لتنقذوا السفن بأى ثمن .
أنجو : ألا تخشى يا سيدى أن تكون هذه مكيدة ، لنقع فى كمين منصوب لنا فى الطريق ؟
لويس : دع عنك هذا . ما جربنا عليه كذبا . كان لا ينذرنا بشيء إلا وقع . انطلق فى الحال .
أنجو : (**فى غير اقتناع**) أمرك يا صاحب الجلالة .
(**يخرج**)
(**تعود چان فى قلق واضطراب**) .
چان : أين يا سيدى زوجى ؟
لويس : (**فى ضيق**) ويلك ألم أبعثه أمامك ؟
چان : لماذا لم يعد حتى الآن ؟
لويس : (**فى حدة**) ما يدرينى ؟ أنا هنا فى الخيمة معك . (**يثور هائجا**) اخرجن جميعا من عندى . اتركننى هنا وحدى !
(**تخرج النسوة الثلاث فى صمت من الباب الثانى**)
(**يقف لويس هنيهة واجما ثم يركع أمام صورة المسيح المعلقة فى الركن الأيسر . وتظهر چان على الباب الثانى كأنها تسترق النظر إلى الملك ، فلما رأته يصلى وضعت كفا على كف فى تطير وأسف ، إلى أن تظهر مرجريت خلفها فتجذبها خارج الباب**) .

لويس : (**يدعو فى خشوع وابتهال**) يا إلٰهى المسيح أنقذنى وأنقذ شعبى !

(**يدخل بواتييه وأنجو مكتئبين فيقفان صامتين ينتظران فراغ لويس من صلاته**) .

لويس : يا إلٰهى المسيح انصرنا على هؤلاء الكافرين ، آمين .

بواتييه : سيدى الملك .

لويس : (**ينهض ملتفتا**) أنتما معا ! ماذا حدث ؟

(**تدخل النسوة الثلاث فى قلق واضطراب**) .

الاثنان : (**فى وجوم**) ...؟

لويس : تكلما ماذا عندكما ؟

بواتييه : سُفُننا يا سيدى .

لويس : ما بالها ؟

بواتييه : وقعت كلها فى يد العدو .

لويس : الاثنان والثلاثون سفينة ؟

بواتييه : نعم وقُتل بحّارتها جميعا .

لويس : كيف يحدث هذا ؟ أين الحاميات التى تركناها على طول الطريق ؟ كيف لم تفعل شيئا لحماية هذه السفن التى تتوقف عليها حياتنا اليوم ؟

بواتييه : الحاميات تحرس مواقعها يا سيدى ليبقى الطريق مفتوحا بيننا وبين دمياط .

لويس : ويلك ما فائدة ذلك إن لم تستطع أن تحمى لنا السفن ؟

بواتييه : كانت مباغتة للجميع يا سيدى ، فلم يخطر ببال أحد منهم أن

العدو سينزل شوانيه المقاتلة من فرع النيل الذى يسمونه بحر المحلة ، والذى يأتى من البر الآخر .

لويس : يا إلـٰهى المسيح ، عونك ونصرك . (**يتهاوى على كرسيه**) .

چان : (**تصيح باكية**) يا للمصيبة يا للكارثة ! سنموت جوعا فى هذا المكان ، سنأكل جيف الخيول ، أنقذونا من هنا بحق المسيح . ارجعوا بنا إلى بلادنا . بلادنا تغنينا .. لا نريد بلاد الآخرين .

بواتييه : (**يأخذ بيد جان**) حسبك يا جان .. حسبك .

چان : ليتنا بقينا فى فرنسا يا ألفونس ، ماذا جاء بنا إلى هذه البلاد ؟

لويس : (**يصيح مغضبا**) لا أريد نحيبا هنا ولا بكاء . من شاء أن يرجع إلى فرنسا فليغرب من وجهى !

بواتييه : معذرة يا سيدى ، إنها ذات قلب ضعيف . (**يحتضن چان ويواسيها**) .

لويس : هذا سبب هزيمتنا . ما كان ينبغى أن يكون بيننا ضعفاء القلوب . (**ينظر إلى چان**) ولا مرتكبو الخطايا والذنوب (**يهم أن ينظر إلى مرجريت ولكنه يعدل عن ذلك**) ولا القادة الغافلون النائمون عن حركات العدو . (**يستقر نظره على بواتييه وأنجو**) .

أنجو : معذرة يا سيدى لا وقت لدينا الآن للتعاتب والتلاوم . علينا الآن أن نتدبر أمرنا وننتهى إلى قرار حاسم .

بواتييه : أجل يا سيدى . لقد أصبح بقاؤنا هنا محفوفا بالخطر ، وكل دقيقة نتأخرها عن الرحيل تدنينا خطوة من الكارثة .

أنجو : كل يوم يموت من رجالنا كثير وينفق من خيولنا كثير ، فإن نجونا من سيوف العدو فلن ننجو من غائلة الجوع والمرض .

لويس : ويحكما أو قد استولى عليكما اليأس من رحمة الله ؟ ألم تعلما أن الله يمتحننا ولكنه لن يتخلى عنا ، وأن معجزة من لدنه تبدل كل شيء؟ أم أنكما قد أصبحتما من هراطقة هذا العصر ؟

بواتييه : كلا يا سيدى إنى أومن بالمعجزة ، وأعتقد أن الله قد أتاحها لنا يوم احتللنا دمياط دون قتال ، ثم أتاحها لنا مرة ثانية يوم عُرض علينا ذلك الصلح الشريف الذى يمنحنا بيت المقدس وعسقلان وطبرية دون عناء ولكنا رفضناها ، فكان عاقبة رفضنا ما نحن فيه اليوم . فلنرحل اليوم عائدين إلى دمياط ، ولنعرض الصلح على السلطان الجديد ونحن أقوياء فى حصوننا ، وأسطولنا إلى جانبنا ، فعسى أن تتحقق لنا المعجزة الثالثة .

أنجو : كلا لا تتحقق المعجزة بغير فتح القاهرة ، لا والمسيح لا نقبل صلحا ولا نفاوض فى صلح حتى نستولى على بابل الجديدة ! فلنبحر من دمياط إلى الإسكندرية ، فإن المعجزة تنتظرنا هناك !

بواتييه : لو كنت صادق الإيمان لعلمت أن الله الذى تنتظر من لدنه المعجزة ، يحب السلام ويدعو إلى السلام .

لويس : كلا ، لا تظنوا أنى جئت ألقى سلاما على الأرض بل سيفا . هكذا قال السيد المسيح .

أنجو : أسمعت يا كونت بواتييه؟ أينا الآن أصدق إيمانا؟

بواتييه : والله ما أنت من الإيمان فى شىء، ولكنك تطمع أن تقيم لنفسك عرشا فى مصر ولو هلك الجيش كله!

أنجو : وأنت والله لا يعنيك هلاك الجيش ولا سلامته، وإنما هزك الشوق إلى مجالس لهوك وشرابك، فأردت أن تعود إلى فرنسا بأسرع ما يمكن.

بواتييه : هذا خير من أن تفنى الجيش كله فى سبيل مطامعك.

لويس : على رسلك يا كونت بواتييه. إنى لن أنزل عن عرش هذه البلاد لأحد، بل سأحتفظ به لنفسى.

بواتييه : فهو يطمع يا سيدى أن توليه حاكما عليها من قِبَلك.

لويس : كلا أنا عازم أن أقيم فى هذه البلاد.

الاثنان : (**فى صوت واحد**) وفرنسا يا سيدى؟؟

لويس : فرنسا! (**يبدو الأسى فى وجهه ثم يتجلد**) سأتركها لأمكما حتى تموت!!

(**يخيم الصمت على الجميع**).

مرجريت : (**تنقذ الموقف**) يا سيدى، ألا ينبغى أن تدع التفكير فى هذا حتى يتم لك فتح القاهرة؟

لويس : (**فى استياء**) لا بد أن نفتحها بمشيئة الله.

مرجريت : إذن فارحلوا فى الحال إلى دمياط قبل أن يحال بينكم وبينها فلا تجدوا إليها سبيلا، ثم قرروا فى دمياط إما الإبحار إلى الإسكندرية وإما السعى إلى الصلح. (**تنظر إلى كل من بواتييه وأنجو**).

الاثنان : أجل يا سيدى هذا هو الرأى .

لويس : (**بعد صمت يسير**) فلتكن مشيئة الله ، اذهب يا كونت أنجو فآذن المعسكر بالرحيل .

أنجو : هل لى يا سيدى أن آمر بحرق أخشابنا التى على البحر حتى لا يستعملها العدو فى العبور إلينا عقب الرحيل ؟

لويس : أصبت .. مرهم بحرقها فى الحال .

(يطغى السرور على الجميع ، وتنهض بياتريس فتقبل الحاضرين واحدا بعد واحد فى خفة ومرح ، ثم تجذب يد زوجها ليراقصها) .

أنجو : يا عزيزتى دعينى أولا أمض لتنفيذ أمر الملك . (**يتملص من يدها ويخرج**) .

بياتريس : (**تدنو من بواتييه**) ارقص معى أنت إذن .

چان : (**معترضة**) ما هذا ؟ أهذا وقت الرقص ؟

بياتريس : ألا يحق لنا أن نحتفل بالخلاص من هذا المكان ؟

چان : ما يدريك ماذا يكمن لنا فى الطريق ؟

(يتطير الحاضرون من هذه الكلمة فيعروهم الوجوم والكآبة) .

لويس : (**يرسم علامة الصليب فيحذو الآخرون حذوه**) هلموا نصل جميعا للرب . (**يتوجه نحو صورة المسيح المعلقة فيجثو أمامها فى خشوع ، ويحذو الآخرون حذوه ما عدا چان فإنها تتململ كأنها مكرهة على ذلك**)

(تستمر الصلاة برهة طويلة وهم يدعون فى سرهم دون

جهر ، ثم يجهر لويس بالدعاء) .

لويس : يا إلٰهنا المسيح انصرنا على أعداء الصليب ، يا أبانا فى السماء آتنا معجزة تقلب هزيمتنا نصرا وجوعنا شبعا وخوفنا أمنا ومرضنا عافية . إلٰهنا أرنا برهانا على رضاك عنا ... أرنا برهانا على أنك استجبت لدعائنا .. برهانا واضحا نراه بأعيننا ، آمين !

الجميع : آمين !

(يظهر من فتحات الخيمة ضوء النيران ودخانها من بعيد)

(ستار)

الفصل الثالث

المشـهد السادس

في القصر السلطاني بالمنصورة .

نفس المنظر كما فى المشهدين الثالث والرابع .

(**يرفع الستار فنرى شجر الدر واقفة قريبا من الباب الأول**) .

الوقت أول الصباح

شجر الدر : سلافة .. يا سلافة !

سلافة : (**صوتها من الداخل**) لبيك يا مولاتى .

شجر الدر : انزلى فانظرى هل فرغ الملك وأخواه من حمّامهم ؟

سلافة : (**صوتها**) سمعا يا مولاتى .

شجر الدر : (**تتنهد**) واهاً عليك يا فخر الدين ! ليتك اليوم تبصر الفرنسيس وهو فى أيدينا أسير . لقد تنبأت بذلك ورسمت لنا كيف نعامله ، ولكنك لم تنبئنا ماذا نفعل بالسلطان إذا طغى فى البلاد وأكثر فيها الفساد . (**تتوجه نحو الشباك فتطل قليلا على فناء القصر ، ثم تستدير فى أسى وتدلف نحو الأريكة وهى تتمتم**) يا إلٰهى إلام تنتهى بنا الأمور ؟؟ قبل معركة القصر بليلة واحدة فقط .. كان هنا معى .. جالسا على ذلك المقعد .. يبادلنى الحديث .. ملء السمع

وملء البصر .. فأين هو الآن؟ ما أشبه الحقيقة بالخيال (**تنظر إلى الباب الأول**) هيه هل فرغوا من حمّامهم يا سلافة ؟

سلافة : (صوتها) نعم يا مولاتى .. هم الآن فى القاعة الوسطى يتناولون الفطور .. معذرة يا مولاتى ، أحمد النحال يستأذن عليك .

شجر الدر : (**يستبد بها الفرح**) أحمد ! أين هو؟

سلافة : (صوتها) فى الدهليز تحت .

شجر الدر : قولى له يصعد .. انتظرى يا سلافة .. ألم يسألك عن ناعسة؟

سلافة : (صوتها) بلى سألنى عنها فقلت له : عند مولاتنا فوق .

شجر الدر : أحسنت . قولى له يصعد إلىَّ .

سلافة : (صوتها) سمعا يا مولاتى .

شجر الدر : لا بد أن أزوجهما فى الحال وليكن ما يكون . (**تطرق مفكرة ثم تنظر فجأة نحو الباب**) ادخل يا أحمد .. ادخل يا بنى .

(**يدخل أحمد وتتقدم نحوه مرحبة**) .

أحمد : (**يقبل يدها فى احترام**) الحمد لله يا مولاتى إذ أنت بخير .

شجر الدر : الحمد لله على سلامتك . أين غبت عنا طول هذه المدة؟ شهرا أو أكثر .

أحمد : ستة وعشرون يوما بالعد والتمام. كنت عندكم هنا قبل المعركة .

شجر الدر : (**تجلس على الأريكة وتومئ له بالجلوس**) ولماذا لم تعد عقب المعركة ؟ لقد جعلتنا فى قلق شديد عليك ، فأين كنت يا بنى ؟

أحمد : (**يجلس على مقعد أمامها**) كنت فى دمياط يا مولاتى مع كتائب المطّوعة .

شجر الدر : هلا عدت أولا لنطمئن عليك ، ثم لتحكى لى حقيقة ما جرى فى المعركة حتى أستهدى بذلك فيما كنت أستقبله من الشئون ؟ حتى صاحبك جوهر الفخرى التمسته فلم أقع له على أثر .

أحمد : هو فى دمياط يا مولاتى . رحل معى إلى دمياط .

شجر الدر : ويل لكما . هلا حضر أحدكما عندى . ألا تعلمان أنى لا أثق كثيرا بما يرويه لى هؤلاء الأمراء المماليك ؟

أحمد : معذرة يا مولاتى ، كان سفرنا إلى دمياط مما لا يمكن تأجيله . لقد كان علينا أن نجمع الكتائب وننظمها لتعاون عساكر السلطان فى استرداد دمياط ، قبل أن يفيق حاميتها الفرنج من صدمة الهزيمة .

شجر الدر : (**فى سخرية**) ما شاء الله : ها هو ذا سلطانكم قد استردها بعسكره ، فأقام بفارسكور يحتفل بأعياد النصر ! فى برجه الخشبى الذى بناه هناك !

أحمد : ما كان فى ظننا أن يرتكب السلطان هذه الخيانة . لقد كنا متفقين معه على أن نسبق عسكره إلى دمياط لنمهّد لهم السبيل ونكون ظهيرا لهم عند الهجوم على المدينة . فإذا هو

يتراخى فى فارسكور ثم يسرِّح عسكره ويوقع ذلك الاتفاق المزيل مع ملك الفرنج .

شجر الدر : لا همَّ له غير مال الفدية . ماذا يعنيه وراء ذلك ؟ سيان عنده أن يجلو الصليبيون من بلاد الشام أو يبقوا فيها إلى الأبد .

أحمد : أجل لقد أضاع على الأمة فرصة ليس لها مثيل. أتدرين يا مولاتى ماذا يصنع هناك فى فارسكور ؟

شجر الدر : اتخذ له ماخورا فى المكان الذى قدسه جلال النصر ، واتصل بقوَّادة من الفرنج لتدير له ذلك الماخور .

أحمد : أى والله يا مولاتى ، لكن ممن سمعت ذلك ؟

شجر الدر : من الأمراء المماليك . لقد صاروا اليوم يروون لى فضائحه بعدما أدركوا ألا مقام لهم عنده ، وأنه لا يعتمد إلا على أوغاده الذين جاء بهم من ديار بكر .

أحمد : وهل أخبروك أيضا أن تلك القوَّادة هى التى توسطت لديه حتى رضى أن ينزل لهم عن المطالبة بإماراتهم فى الشام ، واكتفى بتسليم دمياط والفدية ؟

شجر الدر : (**فى دهش**) هل وقع هذا حقا ؟

أحمد : نعم .

شجر الدر : عجبًا ! لماذا كتموا ذلك عنى ؟

أحمد : أغلب الظن يا مولاتى أنهم يجهلون هذا السر وأن حسام الدين بن أبى على الذى كان يقوم بالسفارة بين السلطان والفرنسيس قد كتمه عنهم .

شجر الدر : لا غرو فهو ما زال يتزلف إلى توران شاه ولم يطَّرحه

توران شاه بعد أن اطَّرح الآخرين . هذا الذى كان يحسد فخر الدين ويزعم أنه ند له . تبًّا له من متملق وضيع .. لكن خبرنى يا أحمد كيف علمت أنت بهذا السر ؟

أحمد : كنت يا مولاتى مع الفرنسيس حينما أرهقه التعب والمرض فى ميدان المعركة ، فقاده رجاله إلى الوكر الذى فتحته هذه المرأة فى تل المُنية مُنية عبد الله ، وهناك حضر إليه حسام الدين حيث جرت المفاوضة بينهما ، فأُصر الملك على رفض الشرط الخاص بتسليم إماراتهم بالشام ، لولا أنه فوجىء بعد قليل باستسلام جنوده الذين يقاتلون فى الميدان فذهل ووهل ، ولم يلبث أن استأسر هو ومن معه . فسمعت المرأة حينئذ تقول لباروناته المحزونين . أيها السادة إن كنتم خائفين على إماراتنا بسوريا فاطمئنوا . سأعرف كيف أجر سلطانهم هذا من رجليه فيوافق لنا على ما نريد .

شجر الدر : (**بعد صمت يسير**) إذن فالفرنسيس صادق إذ زعم أنه لم يأمر جنوده بالاستسلام ، وأن جنديا خائنا منهم هو الذى افترى لهم هذا الأمر عليه .

أحمد : نعم هو صادق فى ذلك ، إلا أن ذلك الجندى واسمه مارسيل كان من حرسه الخاص ، ولم يكن خائنا بل أراد إنقاذ حياته .

شجر الدر : كيف ؟

أحمد : (**يبتسم قليلا**) تذكرين يا مولاتى أن فخر الدين رحمه الله قد رسم لنا فى خطته أن يقع الفرنسيس فى أيدينا حيا ، وكذلك أكناده وباروناته .

شجر الدر : (فى اهتمام) نعم نعم .

أحمد : ولكن السلطان لا يدرك قيمة ذلك . فما أن ضاق من طول القتال ومن رفض الفرنسيس شروط الهدنة ، حتى دبر جماعة من رجاله ليكبسوا ذلك المكان عليه فيغتالوه أثناء مفاوضة حسام الدين له . فلما بلغنى ذلك اتصلت بذلك الجندى مارسيل لما عرف من شدة إخلاصه لسيده ، فقلت له : إن المسلمين كما ترى قد أحاطوا بنا من خلفنا ومن أمامنا ، فلا مناص لنا من الاستسلام إن شئنا أن ننقذ حياة الملك ، فادع الجنود بأمره إلى إلقاء السلاح حتى لا يخسروا المعركة ويخسروا معها حياة الملك .

شجر الدر : (فى دهش وإعجاب) وى ! وى ! وى ! أنت إذن وراء كل هذا ونحن لا نعلم ، والفرنسيس نفسه لا يعلم !

أحمد : أنّى له أن يعلم يا مولاتى وقد قتلوا مارسيل المسكين قبل أن يشرح لهم الحقيقة ؟

شجر الدر : بوركت يا بنى . لك أن تفخر منذ اليوم أنك بحيلتك هذه قد أنهيت القتال وأوقعت فى قبضتنا مائة ألف أسير .

أحمد : إن شئت الحق يا مولاتى فإن المعركة كانت ستنتهى حتما بإبادتهم واستسلامهم ، فقد كانوا فى أسوأ موقف ، والمسلمون محدقون بهم من كل جانب .

شجر الدر : هذا حق ، ولكن لا شك أن عملك هذا عجَّل بذلك . لقد والله قمت بعمل عظيم .

أحمد : لكن يا مولاتى ما الفائدة ؟ أضاع توران شاه كل ما كسبناه

إذ وقَّع ذلك الاتفاق الهزيل، وباع شرف الأمة فى سوق اللذة والفجور.

شجر الدر : (فى أسى) ويا ليته اكتفى بمن عنده من الفواجر، ولم يبثّ رسله فى طلب الحرائر إلى برجه فى فارسكور.

أحمد : (فى اضطراب وقلق) أين ناعسة يا مولاتى، فإنى لم أرها اليوم؟

شجر الدر : (تلحظ اضطرابه) لا تخف يا بنى .. إنها فى أمان.

أحمد : (ينسى تحفظه أمامها) كلا يا مولاتى لن أطمئن عليها حتى تفى لى بما وعدت.

شجر الدر : الحمد لله إذ جئت اليوم، فقد قررت أن أعجل بتزويجها منك حتى لا يطمع فيها هذا الداعر.

أحمد : شكرا لك يا مولاتى، فأين هى الآن؟

شجر الدر : (تخفض صوتها) صه .. لا ينبغى أن يعرف أحد. لقد هرَّبتُها من هنا إلى بيت عز الدين أيبك، لتقيم فيه سرا بين أهله وأولاده.

أحمد : (شارد الفكر) هل كلمك السلطان فى أمرها مرة أخرى، بعد أن قلت له إنها ابنتك وليست مملوكة؟

شجر الدر : نعم .. أرسل يطالبنى هذه المرة بأن أبعثها إليه ليتزوجها بفارسكور.

أحمد : والله ما هو بقاصد زواجها وإنما يريد امتهانها بأى سبيل. (يتهيأ للقيام) هل لى الآن يا مولاتى أن أزورها هناك؟

شجر الدر : انتظر قليلا. ألا تشتهى أولا أن ترى أصحابك الفرنج، فهم

ضيوف على زوجاتهم فى القصر . هذا يوم أحد .

أحمد : لا يا مولاتى لا أريد أن أراهم .

شجر الدر : لماذا ؟

أحمد : أخجل منهم .

شجر الدر : (**مداعبة**) تخجل منهم أم تتحرق شوقا إلى ناعسة ؟

أحمد : (**باسما**) الأمران معا يا مولاتى .

شجر الدر : سلّم لى عليها يا أحمد وقل لها : عما قريب سينتهى كل شىء .

أحمد : سأفعل يا مولاتى .

شجر الدر : مع السلامة . (**يخرج أحمد من الباب الثانى**) (**يدخل الطواشى جمال الدين**).

شجر الدر : ماذا فعل ضيوفك يا جمال الدين ؟ ألم ينتهوا بعد من فطورهم ؟

جمال الدين : قد انتهوا يا مولاتى ، فهل أعيدهم إلى دار ابن لقمان ؟

شجر الدر : ويلك لِم هذه العجلة ؟

جمال الدين : قد استحموا واستراحوا وأفطروا ، فماذا يريدون بعد ؟

شجر الدر : اصعد بهم لأتحدث قليلا معهم ومع زوجاتهم .

(**يهز جمال الدين رأسه ، ويخرج فى غير ارتياح**) .

شجر الدر : (**تتمتم**) خائف أن يحاسبه توران شاه ، كأنما يهتم توران شاه بمثل هذه الأمور (**تصلح الغطاء الذى على رأسها**) رحمة الله على مولاى السلطان ! ماذا كان يفعل لو رآنى أظهر هكذا لعيون هؤلاء الفرنج ! ما أعجب تصاريف الأيام . (**يدخل جمال الدين ، ثم يدخل خلفه مرجريت ثم**

لويس ثم جان ثم بواتييه ثم بياتريس ثم أنجو ، وتنهض لهم شجر الدر فتصافحهم على التوالى . ثم تجلس مرجريت ولويس إلى جانبها فى الأريكة بينما يجلس الآخرون حولها على المقاعد . وقد ظهر على وجوههم جميعا البشر والانبساط ما خلا لويس فالانقباض لا يفارق وجهه . تومئ شجر الدر لجمال الدين فينسحب) .

شجر الدر : (فى لطف) مرحبا بكم جميعا .. كيف حالك أيها الملك ؟

لويس : الحمد لله يا سيدتى السلطانة .

شجر الدر : أرجو أن تكونوا جميعا فى خير .

بواتييه : بفضلك يا سيدتى السلطانة نحن فى أحسن حال .

أنجو : هذا كرم ما كنا نطمع فيه .

شجر الدر : على قدر ما تسمح الحال . هل بقى شيء مما تشكون منه فى دار ابن لقمان .

بواتييه : لا يا سيدتى السلطانة ، قد أصلحوا لنا كل شيء .

بياتريس : (فى دعابة حلوة) لا تصدقيهم يا سيدتى السلطانة . إنهم يتمنون لو أن أيامهم كلها آحاد !

(يضحك الجميع ويبتسم لويس ابتسامة باهتة) .

مرجريت : إذن يتعب المصلون فيهم من الصلاة .

لويس : (فى لهجة جادة) الصلاة لا تتعب أحدا .

مرجريت : لا تتعب من يحبها .

چان : ولكن أخويك يا سيدى الملك لا يحبانها مثلك .

بياتريس : (فى خفتها ومرحها) فماذا كنا نصنع لو كنا كالمسلمين

يصلون خمس مرات فى اليوم؟

مرجريت : إذن لما صلاها منا أحد!

لويس : لو أوجبها المسيح علينا لصليناها ولو كانت أكثر . وليست العبرة بكثرة الصلاة ولكن بما فى قلوبنا من الإيمان .

شجر الدر : نحن نؤمن أيها الملك بالله الواحد الأحد، وبجميع أنبيائه ورسله!

مرجريت : وهذا سر تسامحكم يا سيدتى السلطانة إذا تعصب غيركم . (**يظهر الامتعاض فى وجه لويس ولكنه يسكت**) .

بياتريس : هذا يوم سرورنا، فلا ينبغى أن نكدره بالمواعظ الدينية . (**يضحكون ما عدا لويس**) .

چان : أنت التى فتحت هذا الباب يا كونتس أنجو .

بياتريس : كلا .. أنا قلت إنهم يتمنون لو أن أيامهم كلها آحاد، لا ليصلوا ويتعبوا بل ليتخلصوا من دار ابن لقمان! (**يضحكون**) .

شجر الدر : (**ضاحكة**) لو استطعنا أن نجد لهم خيرا من دار ابن لقمان لأنزلناهم فيها . ولكن البلدة مكتظة بالناس من كل مكان، فاقبلوا عذرنا ونحن آسفون .

مرجريت : يا سيدتى السلطانة لو رأيت كيف نعامل أسرانا فى بلادنا وهم مسيحيون مثلنا، لما احتجت إلى الاعتذار عن هذه الدار التى اخترتموها لقربها من القصر .

شجر الدر : شكرا أيتها الملكة على ثنائك وحسن إدراكك .

مرجريت : ما أثنيت بغير الحق، وليس من المسيحية فى شىء أن ننكر

فضل ذوى الفضل .

شجر الدر : (**تنهض**) يؤسفنى أن وقتكم عندنا محدود ، فينبغى أن أترككم وحدكم لتتناجوا فيما بينكم . خذوا راحتكم . هذا بيتكم .

(**يقفون لها احتراما حتى تخرج وتوصد خلفها الباب**) .

بواتييه : أرأيتم كل هذا الكرم ؟

مرجريت : الذى لا تستحقون عشر معشاره ؟

لويس : هذه سياسة !

مرجريت : (**منكرة عليه**) سياسة ؟

لويس : سياسة ودهاء .

(**كأنما يضيق الآخرون بكلام لويس ، فينتحى كل زوجين منهم ركنا يتناجيان فيه**) .

مرجريت : يا سيدى هذه فرصة لنا لنتعلم منهم الكثير . هب أن هؤلاء المسلمين قد جاءوا غزاة لبلادك ، فوقع ملكهم وأمراؤهم وأميراتهم أسرى فى يدك ، فماذا كنت تفعل ؟ أكنت تسمح لنسائهم أن ينزلن معى فى القصر ، ثم تأذن لرجالهن أن يتصلوا بهن فيه ؟

لويس : وماذا يدعوهم لغزو بلادنا ؟ ألينشروا فيها دينهم الباطل ؟

مرجريت : هبهم فعلوا .

لويس : (**فى حقد**) إذن لأجعلنهم عبرة لمن تحدثه نفسه بتبديل دين المسيح !

مرجريت : هأنتذا قد أقررت بفضلهم من حيث لا تريد .

لويس : (**يتغير وجهه ويتوجه نحو الشباك**) تعالى معى لعلك تهتدين إلى وجه الصواب . (**تتبعه مرجريت**) انظرى . فى هذا الفناء مزقوا شقيقى الحبيب الكونت دارتوا وفرسانه السبعين .

مرجريت : أفكنت تود يا سيدى أن يفتحوا له أبواب القصر ويجلسوه على العرش ؟

لويس : (**فى استياء**) قد علمت أنك لا تشاركينى فى حزنى عليه .

مرجريت : ماذا تريد منى أن أصنع ؟ هل أستطيع أن أحييه لك ؟

لويس : أنت مشغولة بالحزن على غيره !

مرجريت : (**غاضبة**) يا صاحب الجلالة قد اتفقنا على ألا نثير هذه الذكرى بيننا ، فاحترم الاتفاق كما أحترمه ، ولا تدفعنى إلى أن أسمعك ما تكره . إنه قد مات فماذا تريد بعد منه ؟

لويس : (**بلهجة الواعظ الدينى**) ابن آدم يموت وعمله يبقى بعده !

مرجريت : (**محتدة**) ما تعنى يا صاحب الجلالة ؟

لويس : (**كالمتراجع**) لا تحتدى يا عزيزتى ولا تغضبى . هذه آية من الكتاب المقدس .

مرجريت : إن الله يعاملنا بما فى ضمائرنا ، فلا غرو أن تتوالى علينا هذه النكبات .

لويس : إنما ابتلينا بها من قلة إيماننا بالصليب . لقد صرنا اليوم نثنى على أعدائه .

مرجريت : أمن الإيمان عندكم أن ننكر جميل من أسدى إلينا الجميل ؟

لويس : (محتدا) أى جميل تعنين ؟ أتقتيلهم لجنودنا الأسرى : كل يوم يذبح منهم ثلثمائة وترمى جثثهم فى النهر ؟

مرجريت : هذا ما يفعله سلطانهم الشرير على غير رضا منهم ، فكلهم عليه ساخط . لقد سمعت أنت هذا من شجر الدر بأذنيك .

لويس : لست مغفلا فأصدق كل ما أسمع . هذه سياستهم : إحسان هنا وتذبيح هناك حتى يفنى جيشى جميعا فيفعلوا بى وبأسرتى ما يشتهون .

مرجريت : (ضائقة الصدر) يا إلٰهى ماذا أسمع ؟ ألست يا سيدى قد وقّعت معهم الصلح ؟

لويس : بلى وأنا مكره بعد ما أسرونى .

مرجريت : لا تحاول أن تغالطنى . فالشروط التى قبلتها كانت قبل الأسر .

لويس : كلا لقد كنت مصرا على رفضها .

مرجريت : إنما رفضت تسليم إماراتنا بسوريا ، والصلح الذى وقّعته ليس فيه هذا الشرط .

لويس : أتريدين أن أسلم لهم بهذا الشرط أيضا ؟

مرجريت : (فى ضيق) أوه ! إنما أريد أن أسألك ما الذى أخّر حاميتك فى دمياط عن الموافقة حتى اليوم ؟

لويس : ما يدرينى لعلهم يُبصرون فى الأفق ما لا أبصر .

مرجريت : إذن فأنتم المسئولون عن مئات الأسرى الذين يقتلهم هذا السلطان المجنون كل يوم .

لويس : لا لوم عليك . قد صدقتهم إذ زعموا أن سلطانهم هذا مجنون ، وأنهم غير مسئولين عما يعمل .

مرجريت : ليس مجنونا فحسب ، بل هو فاسق فاجر .

لويس : ما أحسب أن ذاك يضيره وهو كافر بالصليب .

مرجريت : ربما لا يضيره هو ، ولكنه يمسّك ويمسّ أسرتك !

لويس : لست أفهم ما تعنين .

مرجريت : فاعلم إذن أنه يريدنى !

لويس : يريدك أنت ؟ متى ؟ أين ؟ كيف ؟

مرجريت : أرسل إلى شجر الدر يطالبها بأن تبعثنى إليه .

لويس : واستجابت ؟!

مرجريت : قبح الله سوء الظن . إنها طردت رسوله بعدما أسمعته أقبح الرد .

لويس : ولماذا لم تخبرنى بذلك ؟

مرجريت : يخجلها أن تذكر لك هذا القبيح عن سلطانهم . إياك أن تفاتحها فيه ، فقد ناشدتنى أن أكتمه عنك .

لويس : تبا له .. ألا يعلم هذا اللعين أنك فى شهرك التاسع ؟

مرجريت : (فى فتور) يعلم أو لا يعلم . قد طلبنى وكفى !

لويس : ألا يحتمل أن يعاود الطلب ؟

مرجريت : اسمع يا سيدى . لقد قررت أن أرحل إلى دمياط ، لأرى بنفسى ماذا أخّر الحامية عن الموافقة على التسليم .

لويس : أنسيت يا عزيزتى أنك أسيرة ؟

مرجريت : قد استأذنت شجر الدر فأذنت ، وستبعث معى من يرافقنى من رجالها الأمناء .

لويس : إن كان هذا يهم شجر الدر فلماذا لا تأذن للكونت أنجو

أو الكونت بواتييه بدلا منك؟

مرجريت : يا سيدى ليكن عندك قليل من الإنصاف .

لويس : (**متراجعا**) أنت فى شهرك التاسع ، وأخشى أن يدركك الطلق وأنت فى الطريق .

مرجريت : سأكل الأمر إلى الله ، ألا تؤمن يا سيدى برعاية الله ولطفه؟

لويس : فليكن يا عزيزتى ما أردت .

(**يدخل الطواشى جمال الدين فيراع الجميع**) .

لويس : ها هو ذا عبدها الكريه قد جاء!

مرجريت : (**بصوت خافض**) صه إن هذا فى رتبة الأمراء .

جمال الدين : أيها السادة قد انتهى وقت الزيارة . (**يتوجه نحو أنجو ليضع القيد فى يديه**) .

لويس : إنها لا تستقبلنا عند القدوم ولا تشيعنا عند الذهاب كأنما نحن من السوقة!

مرجريت : بذمتك يا سيدى ألا تدرك ما ينطوى عليه ذلك من معنى نبيل؟

لويس : من معنى نبيل؟

مرجريت : أجل .. يعز عليها أن ترى أسيرها الملك والقيد فى يديه .

(**يتوجه جمال الدين إلى بواتييه ليضع القيد فى يديه**) .

لويس : إذن فلتعلِّمْ عبدها هذا أدب السلوك فلا يبدأ بأخوىَّ قبلى .

مرجريت : يا سيدى إن التعصب قد حجب عنك كل معنى جميل . ألم تلحظ أنه يجعلك أول من يُطلق عنه القيد ، وآخر من يُعاد القيد فى يديه؟

لويس : أتظنين أنها هى التى أمرته بذلك إكراما لى ؟

مرجريت : كان ينبغى أن تدرك هذا حينما أبدلتك بقيدك الحديد قيدا من الذهب .

لويس : (**يحرك رأسه فى أسى وتهكم**) صحيح ! لكيلا يصدأ فى يدىَّ !

(يقبل جمال الدين حاملا قيدا من الذهب فيضعه فى يدى لويس فى لطف ولكن دون كلام . ثم ينحنى لهم مومئا إلى الباب الثانى ليتبعوه ويسبقهم إليه فيقف هناك . ويرى كل زوجة تعانق زوجها وتقبله فيهز رأسه قليلا ويخفض بصره . يخرج الثلاثة فيخرج خلفهم ويوصد الباب) .

(تنطلق بياتريس وتتبعها چان نحو الشباك فتتطلعان منه ، وتبقى مرجريت واقفة حيث هى فى وجوم) .

مرجريت : (**تمر بيدها على بطنها وهى تتمتم فى أسى**) ابن آدم يموت وعمله يبقى من بعده ! إنه ما زال يتهمنى . لا بأس .. لا ينبغى أن أحقد عليه وهو فى حال تستدر العطف .

(تقبل الأميرتان نحو مرجريت ، وتدخل شجر الدر فتدنو منهن باسمة متطلقة) .

بياتريس : (**تتنهد فى نشوة**) آه متى يأتى الأحد القادم؟

چان : بعد سبعة أيام طوال .

مرجريت : لكنى لن أحضره معكم .. سأكون يومئذ فى دمياط .

شجر الدر : هل وافق زوجك الملك ؟

مرجريت : نعم .

شجر الدر : (**فى رقة**) سوف يوحشنى غيابك يا مرجريت .

مرجريت : وأنا لن أنسى لطفك يا شجر الدر وفضلك وإحسانك .

شجر الدر : كنت أود أن أرى طفلك !

مرجريت : سترينه بعد ما يتم الصلح ويسود السلام .

شجر الدر : إن شاء الله .

النسوة الثلاث : (**كالمسرورات بتعلم هذه الكلمة**) إن شاء الله .

شجر الدر : (**تأخذ بيد مرجريت**) هلم بنا إلى الداخل . (**يتوجهن نحو الباب الأول فيخرجن**)

(يدخل أحمد من الباب الأول بعد قليل فيذرع البهو جيئة وذهوبا وهو فى قلق شديد وكآبة بينة ، ثم تدخل شجر الدر) .

شجر الدر : ما خطبك يا أحمد ؟ ماذا جرى ؟

أحمد : لم أجدها يا مولاتى فى دار أبيك .

شجر الدر : لم تجدها .. أين ذهبت ؟

أحمد : سألت عنها أهله وخدمه فلم يخبرنى أحد منهم بشىء قاطع . ووجدتهم جميعا فى قلق وخوف ، وسألت عن عز الدين أبيك فقالوا خرج من الصباح ولم يعد .

شجر الدر : (**فى قلق شديد تحاول كتمانه**) ...؟

أحمد : أخشى يا مولاتى أن يكون أيبك نفسه قد اتفق ....

شجر الدر : مستحيل !

(يسمع وقع أقدام من جهة الباب الثانى ، ثم يدخل جمال الدين) .

جمال الدين : هذا عز الدين أيبك يا مولاتى .

شجر الدر : ادخل يا عز الدين (**يدخل أيبك فى اضطراب وكآبة**) ويلك أين ذهبت ناعسة؟ ماذا فعلتم بها؟

أيبك : رجال توران شاه يا سيدتى .. اقتحموا بيتى فى غيابى وغياب رجالى فأخذوها بالقوة .

شجر الدر : ولم تركب فى أثرهم حين علمت؟

أيبك : ركبت يا سيدتى وركب معى رجالى فلم نقع لهم على أثر .

أحمد : (**لأيبك فى غضب**) لو كنت مكانك أيها الأمير المبجل، لانطلقت إلى هذا السلطان الداعر فقتلته . كيف ترضى لنفسك أن يقتحم رجاله دارك؟ أما كان من الجائز أن يحملوا زوجتك إليه؟ ائذنى لى يا مولاتى ..

(**يتوجه نحو الباب ليخرج**) .

شجر الدر : إلى أين يا أحمد؟

أحمد : سأدركهم بنفسى .. لن أعتمد على هؤلاء المماليك .

أيبك : انتظر حتى أبعث معك بعض رجالى ..

أحمد : احتفظ بهم عندك ليحرسوا زوجتك!

أيبك : خذ سيف الدين قُطُز فهو صديقك .

(**يخرج أحمد منطلقا**) .

أيبك : (**يهرع إلى الشباك فينادى بأعلى صوته**) يا قُطُز! يا سيف الدين! انطلق مع صديقك أحمد النحال . اركب معه حيثما ذهب .

(**يظهر أقطاى على الباب**) .

أقطاى : هل لى يا سيدتى أن أدخل؟

شجر الدر : ادخل يا أقطاى .. تعال أشِر علينا فى أمر صاحبك السلطان .

أقطاى : (**فى شماتة خفيفة**) أحقا يا عز الدين ما سمعت من مملوكك قطز؟

شجر الدر : (**تجلس على الأريكة**) هلموا اجلسوا أمامى . أوصد علينا الباب يا جمال الدين . (**يجلس أقطاى وأيبك ، ويوصد جمال الدين البابين ثم ينضم إلى زميليه**) .

شجر الدر : (**تندفع فى غضب**) إلى متى تسكتون على سلطانكم هذا؟ ما بقى إلا أن يخطف النساء من بيوتنا وبيوتكم . أليس فيكم غيرة؟ أليس فيكم شهامة؟

أقطاى : يا سيدتى لو كانت ابنتك عندى فى بيتى لما اجترأ عليها أحد .

أيبك : ويلك أنا ورجالى كنا غائبين عن البيت .

أقطاى : ولو !

شجر الدر : (**صائحة**) كفى ! تتناقرون أمامى كالديكة .. هذا كل ما تحسنون.أما الدفاع عن مصالح الأمة وأعراض الناس وسمعة الدولة فأنتم عنه تجبنون . لطالما أهاننى وطالبنى بما عندى وما ليس عندى من أموال أبيه بزعمه وأنتم صامتون . ثم استغثت بكم لتحموا جوارينا وغلماننا من فسقه وفجوره فكنتم جميعا تتنصّلون . ظللتم تتملقونه وتتزلفون إليه طمعا فى الجاه والمنصب والمال حتى أفسدتموه فوق فساده .. فماذا نلتم منه؟ ألم يجعل الأمر والنهى لرجاله ،

وقلدهم المناصب ، وأقطعهم الأموال واطّرحكم كالجمال الجُرب ؟

(**ينظر بعضهم إلى بعض دون كلام**) .

شجر الدر : (**ماضية فى كلامها**) لقد كنتم شجعانا فى تحدى ذلك القائد العظيم الذى لم تنجب الأمة مثله ، فظللتم تناوئونه وتكايدونه ثم تركتموه يلقى جموع الفرنج وحده حتى استُشهد . (**يغلبها البكاء فيلجمها عن الكلام**) .

أقطاى : لا ينبغى لك يا سيدتى أن تستثيرى أشجانك بذكرى رجل قد مات وانقطع اليوم عن كل سبب بيننا وبينه.

شجر الدر : (**تتجلد قليلا**) حتى بعد موته ما تركتموه يستريح فى قبره. ظللتم توغرون صدر توران شاه عليه حتى انتزع أملاكه من ورثته وأنتم تنظرون ، وصار يذمُّه فى كل مجلس وأنتم تسمعون !

أقطاى : ماذا كنا نفعل يا سيدتى ؟ كان ينكر أمورا صدرت حقا من فخر الدين. كان فخر الدين قد أنفق الأموال وأطلق المحابيس فلم يترك للسلطان شيئا حين جاء.

شجر الدر : ويلكم فيم أنفق الأموال ؟ أليس على مصالح الأمة ! إذ أبطل كثيرا من المكوس ؟.. وأطلق المحابيس ، أليس ليشتركوا فى الدفاع عن الوطن ؟

أيبك : وأنكر عليه أيضا أنه أطلق السُكَّر والكتَّان .

أقطاى : أجل . هذا صحيح .

شجر الدر : ويلكم. أطلق السكر والكتان لأهل الشام حرصا على

الوحدة بيننا وبينهم .. ألم تدركوا بعد أن وحدتنا هى الدرع التى تقينا جميعا من طمع الطامعين من الغرب والشرق ؟ أتقلبون حسنات الرجل إلى سيئات ؟

أيبك : معذرة يا سيدتى . نحن ما قلنا ذلك . السلطان هو الذى قال.

شجر الدر : بل تحسدونه حيا وميتا . ويلكم كنتم تدَّعون أنكم تخافون على مستقبلكم منه ، مع أنه كان يسعى إلى ما فيه خير الأمة وصلاحها ، ومعه عهد بذلك من مولاكم المرحوم . فأين هذا الفاجر منه ، ولا عهد له من السلطان أبيه إلا ذلك العهد الذى زوَّرناه له وحلَّفنا عليه الناس . ها هو ذا يقضى على مستقبلكم بالفعل ، وفى الحقيقة لا فى الظن ، وأنتم بعد مترددون متخاذلون . ويلكم ماذا تنتظرون ؟ أتنتظرون حتى يقتلنى ويتخلص منى ؟ إذن والله لا تقوم لكم قائمة بعدى ، وليجعلنكم عبيدا لأوغاده الذين لملمهم من حصن كيفا وديار بكر !!

أيبك : كلا يا سيدتى ، لقد عاهدناك على أن نكون معك على كل قريب وبعيد ولن نتخلى عنك أبدا . ونحن ما صبرنا عليه إلى اليوم إلا رعاية لك ولمولانا أبيه . أما وقد أذنت فوالله لأخلصنك منه ولو فقدت رأسى . إن رأسى فداء لك .

(يغمز جمال الدين لأقطاى خفية ، كأنه يقول له لا تدع أيبك يسبقك إلى هذه اليد عند شجر الدر) .

أقطاى : رويدك يا عز الدين . أنا أولى بتأديبه منك . أنا الذى أحضرته بنفسى من حصن كيفا فعلىَّ أنا ورجالى أن

نخلصكم منه . والله لا يقتله سوانا .

أيبك : لكنه أهانني أنا .

أقطاى : بل أهاننا جميعا ، وأهان سيدتنا شجر الدر . وهذه مهمة خطيرة إن أخفقت فسيكون فيها هلاكنا جميعا .

أيبك : أتستهين بى وبرجالى ؟

أقطاى : رجالى أقوى من رجالك . ليس عندك مثل بيبرس !

أيبك : عندى سيف الدين قطز !

أقطاى : ليس عندك غيره ، وعندى كثير من أنداد بيبرس .

أيبك : سيف الدين قطز يعدل هؤلاء جميعا .

أقطاى : (**محتدا**) لكنى أنا لا يعدلنى أحد !

شجر الدر : كفى نزاعا أمامى ، ليتولَّ هذا الأمر بيبرس فهو أشرسهم جميعا .

(**يتغير وجه أيبك ويتبلج وجه أقطاى**) .

جمال الدين : يجب يا مولاتى أن نفكر أولا فيمن يخلف توران شاه إذا قُتِل .

أقطاى : أصبت يا جمال الدين . هذا واجب .

شجر الدر : رويدكم . هذه فرصة أتاحها الله لنا لتنفيذ الوصية .

أقطاى : (**فى ذعر**) أية وصية ؟

شجر الدر : وصية مولانا المرحوم الصالح أيوب أن تختار الأمة من توليه أمرها .

أقطاى : ليجنَّد من عامة الشعب فلا يبقى لنا عيش فى البلد ولا مكانة ؟ والله لا نقبل هذا أبدا .

أيبك : أجل يا سيدتى هذه فكرة فخر الدين ، ومن أجلها قاومناه ولا يمكن أن يقبلها أحد .

شجر الدر : ألم تشهدوا بأعينكم كيف أن نظام الملوك لم يعد صالحا ، وكيف جر علينا وعلى البلاد هذا الوبال .

أقطاى : اطمئنى يا سيدتى ، فلن نقبل بعد اليوم مَلكا يرث عن أبيه لا من آل أيوب ولا من غيرهم . سنجعل الحكم متداوَلا فينا نحن المماليك ، فنحن الذين حمينا هذه الدولة بدمائنا وعلى أكتافنا قامت وعاشت .

أيبك : هذا رأى سديد وهو ما يقبله الجميع .

أقطاى : لن نرضى أبدا أن يحكمنا رجل من العامة ، نضع مستقبلنا ومستقبل ذرارينا فى يديه .

شجر الدر : (**بعد صمت يسير**) قد علمتُ أن هذا لن توافقوا عليه ، فمن الذى ترونه فيكم أصلح اليوم لهذا الأمر ؟

(**ينظر بعضهم إلى بعض**) .

أقطاى : أقوانا ناصرا وأكثرنا رجالا .

أيبك : قد لا يكون الأقوى هو الأصلح .

جمال الدين : الرأى عندى حسما للخلاف وإنصافا للحق ، أن تختاروا مولاتنا شجر الدر ، فهى زوجة سيدنا ومولانا ، ثم هى منكم وأنتم منها فى الأصل .

أيبك : والله إن هذا لهو الرأى . (**فرحا لأنه سبق أقطاى إلى هذه الكلمة**) .

شجر الدر : لكنى لستُ رجلا .

جمال الدين : أنت عندنا بألف رجل .

شجر الدر : (تتمتم) بألف ..... (**يغلبها الحزن فلا تكمل كلمتها**) .

أيبك : ما خطبك يا سيدتى ؟

شجر الدر : لا شىء .. لا شىء .

أقطاى : لا تهتمى . سنكون نحن معك نشد أزرك ونعاونك فى كل شىء .

(**يسمع طرق على الباب الثانى**) .

شجر الدر : انظرْ يا جمال الدين من الطارق ؟

(**يخرج جمال الدين ثم يعود**) .

جمال الدين : (**فى شىء من الاضطراب**) هذا الحاجب يا مولاتى ، يقول إن وفدا من رجال السلطان يستأذنون عليك .

(**ينظر بعضهم إلى بعض**) .

أقطاى : دعيهم يدخلوا ، فوالله يا سيدتى لئن أرادوا شرا لا يخرجون من هنا إلا إلى الحفر !

شجر الدر : (**فى اتزان**) ائذن لرئيس الوفد وحده .

(**يخرج جمال الدين ويبقى الثلاثة صامتين فى توقع وقلق**)

(**يعود جمال الدين ومعه رجل ضخم الجثة كريه المنظر يرفل فى هندام فاخر لا ينسجم مع هيئته**) .

الرجل : سلام عليك أيتها السلطانة زوجة والد مولانا السلطان .

شجر الدر : وعليك السلام . ماذا وراءك ؟

الرجل : معى رسالة شفوية من مولانا السلطان المعظم توران شاه .

(**يقلب بصره فى وجوه الثلاثة**) .

شجر الدر : أدِّ رسالتك فهؤلاء خواص رجالى .

الرجل : (**فى اعتداد بنفسه**) كما تشائين . إنه غاضب عليك يا مولاتى لأنه طلب منك اللؤلؤ الذى عندك فأرسلت إليه مسحوق اللؤلؤ .

شجر الدر : (**ساخرة**) قل لمولاك السلطان إنى سحقت له اللؤلؤ فى الهاون ليتخذ منه علاجا للعلّة التى عنده .

الرجل : إن مولاى ما عنده علة .

شجر الدر : فلماذا طلب اللؤلؤ الذى أتحلى به ؟

الرجل : ليضم قيمته إلى بيت مال المسلمين .

شجر الدر : لبيت مال المسلمين أم لبيت تلك المرأة الفرنساوية ؟

الرجل : (**يطرق قليلا كأنه يفكر فيما ينبغى أن يقول ثم يستأنف حديثه**) وقد تلقى كتابك يا مولاتى فى أمر أسرى الفرنج فقرأه بعناية . ويسر قلبه الرحيم أن يستجيب لنصيحتك فيمنع قتل الأسرى ، بشرط أن تحضر ملكتهم إلى جنابه ومعها الأميرتان ، ليشفعن لهم فيقبل شفاعتهن .

شجر الدر : (**تكظم غيظها**) ارجع إلى مولاك فقل له إن هؤلاء السيدات فى قصرى وفى حمايتى ، ولا يمكن أن أتخلى عنهن لأحد .

الرجل : يتشفعن عنده ثم يرجعن إليك .

شجر الدر : حسبه الله . ألا يعلم أن الملكة حبلى فى شهرها التاسع ؟

الرجل : فى شهرها التاسع ؟ إذن فلتصحبنا الأميرتان وحدهما دون

الملكة.

شجر الدر : الأميرتان أيضا عندهما حمل.

الرجل : هل لى أن أفتشهما لأنقل إليه الخبر؟

شجر الدر : (**ثائرة**) ويلك يا وقح! انظر أمام من تتكلم.

الرجل : أنا يا مولاتى مأمور من ملك البلاد.

شجر الدر : لا طاعة لملك البلاد فى مثل هذا الأمر القبيح.

الرجل : مولاتى السلطانة لا تضطرينى ورجالى أن نحملهن من عندك بالقوة.

(**ينطلق نحو الشباك لينادى رجاله فيثب نحوه أقطاى بسُرعة البرق**).

أقطاى : (**يطعنه بخنجر**) اخسأ يا كلب!

الرجل : (**يصيح**) قتلونى! قتلونى!.. اصعدوا يا رجال!

أقطاى : (**يصيح مناديا**) انتظروا يا أوغاد حتى ألحقكم بصاحبكم.

(**يجرى الرجل مترنحا صوب الباب ويلتفت إلى شجر الدر فيقول بصوت كالحشرجة**) غدا ينتقم لى السلطان منك ومنكم جميعا.

شجر الدر : أخرجوه من هنا لا يلطخ المكان بدمه النجس.

(**يدفعه أيبك وجمال الدين حتى يخرجا به. ثم يعودان وهما يمسحان من أيديهما أثر الدم**).

شجر الدر : الآن يجب أن تعاجلوه. لقد قتلتم رسوله فى قصرى ولن يسكت عنا حتى يهلكنا جميعا. أدركوا رجاله فى الطريق!

أقطاى : أجل علينا أن ندركهم ثم ننطلق إلى فارسكور.

(يخرج مسرعا ويخرج خلفه أيبك) .

شجر الدر : تصحبكم السلامة والتوفيق.

(ستار)

المشهد السابع

المنظر : نفس المنظر السابق.

(الوقت أول الضحى)

(يرفع الستار عن ناعسة وچان وبياتريس داخلات من الباب الأول وهن يتضاحكن فى مرح) .

چان : ما هذا يا كونتس أنجو ؟ إنك ضايقت الفتاة .

بياتريس : ضايقتك يا ناعسة ؟

ناعسة : أبدا .. أنا مسرورة .

بياتريس : سمعت يا كونتس بواتييه ؟ أرينى الآن يا ناعسة **(تقف أمامها ناعسة فتتأملها فى إعجاب)** .

ناعسة : ماذا تنظرين فىَّ ؟ قد فعلت هذا مرارا من قبل .

بياتريس : أنا لا أشبع منك أبدا . **(يضحكن)** .

چان : إنها مجنونة يا ناعسة .

ناعسة : **(ضاحكة)** لا بأس .. دعيها تنبسط .

بياتريس : **(تتأمل ناعسة ظهرا وبطنا)** يا له من قوام ! هذا التهافت فى الخصر ! وهذه الرباوة فى الردف !. ثم انظرى يا كونتس بواتييه هل رأيت قط مثل هاتين الكمَّثراتين ؟

چان : استحى ، لقد أخجلت الفتاة .

بياتريس : الخجل يزيدها جمالا . انظرى إلى لون خديها .. إنه لون عجيب . وانظرى إلى عينيها . مثل عينيه تماما . وإلى فمها . طبق الأصل .

چان : لا عجب فهو ابن عمها .

بياتريس : ما أحلاها ! ما أحلاك يا ناعسة !

ناعسة : (**باسمة**) أنت عندى أحلى .. عيناك الزرقاوان وشعرك هذا الذهبى .

بياتريس : من هذا عندنا كثير .

ناعسة : ومن هذا أيضا عندنا كثير .

بياتريس : نتبادل ؟

ناعسة : يا ليت .

بياتريس : صحيح ؟

ناعسة : صحيح .

بياتريس : (**فى أسف وحسرة**) لكن كيف ؟

چان : (**تشير إلى جهة الباب الثانى**) صه !

(**يدخل جمال الدين من الباب الثانى وخلفه أيبك وأقطاى ، فيفاجأون بوجود الأميرتين مع ناعسة**) .

جمال الدين : أين ستك السلطانة يا ناعسة ؟ أخبريها أننا حضرنا . (**تخرج ناعسة والأميرتان**) إن سألتكما عنى فقولا لها إننى سأحضر الفرنسيس وأخويه حسب أمرها . (**يخرج**) .

أيبك : (**بصوت خافض**) رأيت يا فارس الدين ؟ رأيت هاتين

الشقراوين؟ ما رأيك فيهما؟

أقطاى : مليحتان.

أيبك : لو خيرت بينهما فأيهما تختار؟ الكبرى أم الصغرى؟

أقطاى : ويلك زوجاهما موجودان..

أيبك : على فرض أنهما قتلا فى المعركة.

أقطاى : (**ينظر إليه فى ارتياب**) ليس من عادتى أن أفترض ما ليس بواقع.

أيبك : على فرض أنه وقع.. على فرض.

أقطاى : إذن فإنى أختار الملكة.

أيبك : (**فيما يشبه الذعر**) الملكة؟ أية ملكة؟

أقطاى : (**يعد بأصبعيه**) الملكة التى فى بالى، والملكة التى فى بالك.

أيبك : (**يتغير وجهه قليلا ولكنه يتجاهل قصده**) لكن زوجها الفرنسيس موجود.

أقطاى : افرض يا أخى أنه غير موجود.

أيبك : كيف وبيننا وبينه اتفاق قائم؟

أقطاى : إذن فسأكتفى بالملكة التى زوجها غير موجود. هل يرضيك هذا الجواب؟

أيبك : إنك لم تفهم قصدى.

أقطاى : بل فهمته يا عز الدين.

أيبك : كنت أسألك عن أسيراتنا الشقراوات.

أقطاى : وقد أجبت على سؤالك: تلك التى فى دمياط الآن والتى

اسمها مرجريت هى التى على مزاجى . إنها .. إنها ..

أيبك : إنها ماذا ؟

أقطاى : إنها .. على مزاجى !

أيبك : (**يتصنع الضحك**) ما دامت هذه على مزاجك ، فانتظر قليلا لعل زوجها الفرنسيس يقع له شىء .

أقطاى : (**ينظر إليه فى خبث**) لكن خل بالك يا أيبك . الملكة الأخرى أيضا لى . هى من دمى ومن ذوق ، لن أجد لى أصلح منها ولن تجد لها أصلح منى .

أيبك : لا حق لك أن تتفوه بمثل هذا القول فى السلطانة .

أقطاى : لم لا ؟ أنا الذى أجلستها على العرش .

أيبك : بل نحن جميعا اخترناها للعرش .

أقطاى : أنا الذى قتلت السلطان .

أيبك : أنت ؟

أقطاى : أنا ورجالى .

أيبك : وأنا ورجالى اشتركنا معكم فى ذلك .

أقطاى : ويلك ، أفتريد أن نتزوجها شركة ؟

أيبك : صه إنها جاءت .

شجر الدر : (**تدخل**) صباح الخير .

الاثنان : صباح الخير يا سلطانة المسلمين .

أيبك : يا عصمة الدنيا والدين . يا أم خليل المستعصمية يا ....

شجر الدر : (**تجلس على أريكتها**) كفى ألقابا يا أيبك ، فعندنا ما هو أهم (**تومئ لهما فيجلسان**) .

أقطاى : يا مولاتى نحن قتلنا لك توران شاه ووليناك الحكم لتفصلى فى أمر هؤلاء الفرنج ، ولا تبقيه معلقا هكذا إلى ما شاء الله .

شجر الدر : ماذا تشير علينا أن نصنع يا أقطاى ؟

أقطاى : يا مولاتى .. بعد هذا الكتاب الذى تلقيته أمس من حسام الدين ، لا يبقى لنا عذر إذا لم نقتل هذا الفرنسيس وأخويه، ثم ننقض على دمياط .

أيبك : أجل يا مولاتى . هذا هو الرأى .

شجر الدر : لكن كيف نقتل الفرنسيس وهو رهن فى أيدينا نستطيع أن نساومهم عليه ؟

أقطاى : قد اتضح الآن أنهم لا يبالون بأمره .

أيبك : وليس له عندهم قيمة .

شجر الدر : إذن فماذا يعود علينا من قتله ؟

أيبك : لا شك عندى أنه يحرضهم سرا على المماطلة .

شجر الدر : ما عندنا على ذلك دليل قاطع .

أيبك : أنسيت يا مولاتى ما كان منه عقب مصرع السلطان؟ ألم يمتنع من تجديد الاتفاق معك وأصر على ألا يوقعه إلا مع سلطان من آل أيوب .

شجر الدر : لكنه رضى بعد ذلك ووقّعه ، فليس لنا عليه سبيل .

أقطاى : فليبق هو عندنا ، ولننطلق لاسترداد دمياط .

أيبك : هذا حل وجيه .

شجر الدر : كلا إنى ما زلت أنتظر جوابا من الملكة مرجريت لعلها تنجح فى مسعاها .

أقطاى : لها الآن شهر هناك ولم تصنع شيئا ، ولم تكتب إليك بشيء .

شجر الدر : لا تنسوا أنها كانت على وشك أن تضع ، فلعل الولادة شغلتها قليلا .. فلا بأس أن ننتظر . وقد بعثت فى طلب الفرنسيس وأخويه لأكلمهم فى هذا الشأن ، فلننظر ماذا يقولون .

(يدخل جمال الدين) .

جمال الدين : مولاتى ...

شجر الدر : أحضرتهم ؟

جمال الدين : نعم .

شجر الدر : أدخلهم .

(يدخل لويس وبواتييه وأنجو ، فتنهض لهم شجر الدر مرحبة ولكن ليس ذلك الترحيب الحار الذى قابلتهم به فى المشهد السابق . أما هم فقد أظهروا لها احتراما أكبر من ذى قبل) .

شجر الدر : تفضلوا بالجلوس **(تشير إلى ثلاثة مقاعد أمامها فى الجانب الأيسر ، فيجلسون يتوسطهم لويس)** أيها السادة ، جاءنا أمس كتاب من مندوبنا حسام الدين يبلغنا أنه يئس من إقناع حاميتكم فى دمياط بالإقلاع عما درجوا عليه من التسويف والمماطلة فى تنفيذ شروط الصلح ، فماذا ترون ؟

لويس : ما ذنبى أيتها السلطانة ؟ أنا محبوس هنا عندكم ، فما يدرينى ماذا يجرى هناك ؟ وقد وافقت على سفر زوجتى الملكة إلى دمياط لعلها تصنع شيئا ، ولكنى لا أدرى من أمرها اليوم

شيئا .

(يهم بواتييه بالكلام ، فيومئ له لويس بالمنع) .

شجر الدر : **(فى استياء واضح ولكن مع اتزان)** إذن يكون لنا معكم شأن آخر . لا تحسبن أيها الملك أننا نعجز عن تحرير دمياط بالقوة . ولكنا ارتبطنا معكم بعهد ولا نحب أن ننقضه حتى تنقضوه أنتم . إنى أريد أن أعرف هل ما زلت أنت كبيرهم المسئول أم قد تخلوا عنك ؟ لقد ماطلوا فى المرة الأولى واعتذروا بقتل السلطان ، فقبلنا عذرهم وجددنا الاتفاق كالأول دون تعديل ، مع أنه كان فى وسعنا أن نتمسك بشروط أخرى فى صالحنا ولكنا لم نشأ أن نستغل الظروف ، وقد اعتبرتك وأسرتك ضيوفا عندى فكرهت أن أخل بواجب الضيافة . وقد أرسلنا حسام الدين نفسه ليشرف على تنفيذ الاتفاق فى دمياط ، لأنك أنت اخترته ولم ترد أحدا غيره فأجبناك إلى طلبك ، فأى شيء تريدون بعد ؟ إن كنتم تريدون حربا فصارحونا بذلك لنتصرف على أساسه .

بواتييه : **(لم يستطع صبرا)** ملاعين خونة . اكتب إليهم يا سيدى بأنك تعتبرهم خونة ، وأنك برىء منهم ما لم يبادروا فى الحال بتنفيذ الاتفاق .

أنجو : وهل تظنهم يصدقون كلامه وهم يعلمون أنه أسير ؟

بواتييه : ليصدقوه أو لا يصدقوه . عليه أن يكتب إليهم بذلك ، حتى يبرئ ذمته على الأقل أمام هذه السلطانة العظيمة التى طوقتنا

بإحسانها ، وعاملتنا معاملة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ الحروب .

لويس : إنى قد كتبت لهم فى ذلك من قبل .. ولا أحب لكلامى أن يداس بالأقدام مرة أخرى .

بواتييه : من حقك يا سيدى ، بل من واجبك ، أن تعاقب أولئك الذين داسوا على كلامك بالأقدام .

لويس : ويلك كيف أعاقبهم وأنا محبوس معك فى دار ابن لقمان ؟

(يسمع طرق على الباب الثانى فينهض جمال الدين إلى الباب) .

أنجو : (**كالمعتذر**) لا بأس يا مولاتى السلطانة أن ننتظر قليلا حتى تسفر الأمور .

جمال الدين : (**يعود**) رسول يا مولاتى من حسام الدين .

شجر الدر : إيذن له .

(يدخل جوهر الفخرى فتطلع العيون إليه بمشاعر مختلفة من الحب والكراهية والدهش) .

جوهر : سلام عليك يا مولاتى السلطانة .

شجر الدر : وعليك السلام يا جوهر . أنت رسول حسام الدين ؟

جوهر : نعم .. أبشرك يا مولاتى بفتح دمياط (**يقدم لها كتابا مختوما**) .

شجر الدر : (**تفض الكتاب بيد مرتعشة من التأثر ، ثم تتصفحه والجميع بين قلق وفرح ومدهوش**) الحمد لله قد استولى المسلمون على معظم دمياط ، ولو لم يوقفوا الزحف نزولا

على أمر حسام الدين لاستردوها كلها .

المماليك الثلاثة: (**فرحين**) الحمد لله .

(يصفر وجه لويس ، ويبدو بواتييه كالشامت بأخويه ، أما أنجو فيبدو كالمرتاب فى صحة الخبر) .

لويس : هذا نقض صريح للاتفاق ما كنا نتوقعه منكم ، بل هذا غدر صارخ .

أنجو : أجل .. لعل حاميتنا ما امتنعوا عن التنفيذ إلا لتوقعهم مثل هذا الغدر .

بواتييه : هم المسئولون على كل حال . ما أخرهم حتى اليوم ؟

شجر الدر : رويدا أيها السادة . إن الذين هاجموا دمياط ليسوا من جنودنا ، وإنما هم المتطوعون من عامة الشعب ومن عربان الناحية .

(يبدو الاكتئاب على وجوه المماليك الثلاثة) .

لويس : (**فى حدة**) أنتم مسئولون عن هؤلاء .

شجر الدر : كلا .. ليس لنا عليهم سلطان . هذه البلاد التى غزوتموها ظلما وعدوانا هى بلادهم قبل أن تكون بلادنا . والدين الذى حاربتموه بجهلكم وتعصبكم هو دينهم أيضا كما هو ديننا . وقد رأوا فى صلحنا معكم تفريطا فى حقوقهم وما سكتوا عليه إلا مجاملة لنا ورغبة منهم فى معاونتنا على تضميد جراح الحرب . ولكنهم انتظروا طويلا يرقبون من جانبكم تنفيذ الشروط حتى نفد صبرهم ، فقاموا بما قاموا مضحين بأموالهم وأرواحهم ، حتى إذا شفوا بعض ما فى صدورهم

استجابوا لدعوة مندوبنا فكفوا عن القتال لينظروا ماذا نفعل. فمن ذا يستطيع أن يلومهم؟

لويس : إن كان هؤلاء من رعاياك أيتها السلطانة فأنت مسئولة عما فعلوه.

شجر الدر : عجبا لك. أليس الذين يحتلون دمياط من جنودك ورعاياك، فلماذا تنصّلت من تبعة عصيانهم لأوامرك؟

جوهر : معذرة يا مولاتي، لعلك لم تقرأى ما كتبه فى حاشية الكتاب.

شجر الدر : ماذا فى الحاشية؟

جوهر : إنه أذن للملكة مرجريت بالسفر إليك فهى قادمة فى الطريق.

شجر الدر : (**تنظر فى الرسالة مرة أخرى**) صحيح. أهلا بقدومها فإنها ملكة عاقلة حكيمة! (**تنظر إلى لويس فيخفض بصره**).

أحمد : (**يدخل**) مولاتى السلطانة، الملكة مرجريت تستأذن عليك.

شجر الدر : (**فى دهش**) أحمد! أنت يا أحمد الذى جئت بها من دمياط؟

أحمد : نعم يا مولاتى.

شجر الدر : (**تنهض فرحة**) أهلا بها. مرحبا ألف مرحب. (**تدخل مرجريت شاحبة الوجه،فيجرى بينها وبين شجر الدر عناق طويل وتبادل قبلات حتى خيل إلى الحاضرين أنهم**

فى جلسة عائلية . ويتخلل ذلك تهامس بينهما حول التهنئة باعتلاء شجر الدر العرش وحول الجنين الذى وضعته مرجريت وهل هو ذكر أم أنثى ، ولماذا لم تحضره معها وما أشبه ذلك . ثم تتركها مرجريت لتعانق زوجها وتصافح أخويه) .

شجر الدر : (**فى خلال ذلك تلتفت إلى أحمد وجوهر**) ادخل يا أحمد . سلم على ابنة عمك واتفق معها على موعد الزفاف . وأنت يا جوهر ادخل إلى سلافة فقد أعتقتها لأزوجها لك .

الاثنان : شكرا يا مولاتى السلطانة . (**يخرجان فرحين من الباب الأول**) .

شجر الدر : اجلسى هنا بجنبى أيتها الملكة العزيزة .

مرجريت : شكرا يا مولاتى السلطانة .. سأجلس هنا بجنب زوجى الملك . (**تجلس على مقعد بجنب لويس**) .

شجر الدر : هل لك أن تؤكدى لهؤلاء أن المصريين قد استولوا على معظم دمياط ، فقد رأيت بعضهم يرتاب فى صحة هذا الخبر . (**تلقى نظرة إلى أنجو فيخفض بصره**) .

مرجريت : كيف يرتابون فى شىء وقع ؟ وهل تجشمت أنا مشقة السفر تاركة طفلى الرضيع إلا من أجل هذا الأمر الخطير ؟ (**يتغير وجها لويس وأنجو**) فلو أذنت لى يا مولاتى السلطانة أن أشرح لهم حقيقة الحال حتى يحيطوا علما بكل ما كان يجرى هناك ؟

شجر الدر : حبا وكرامة . سنترككم وحدكم لتتداولوا الرأى فى حرية

تامة .

(**تنهض فينهض الجميع**) .

مرجريت : شكرا لك يا مولاتى السلطانة .

شجر الدر : (**للأمراء المماليك الثلاثة**) تعالوا معى لأتشاور معكم (**ثم للفرنج**) سأبعث الأميرتين لتنضما إليكم (**بلهجة جادة**) وأرجو أن تستقروا على شىء فلا تنقضوه مرة أخرى . (**تخرج ويخرج خلفها الأمراء الثلاثة**) (**تدخل بياتريس وچان منطلقتين فتعانقان مرجريت وتحاولان أن تجاذباها الحديث**) .

مرجريت : رويدكما . سنتحدث عن كل هذا فيما بعد . اجلسا الآن لنبحث مع رجالنا هذا الوضع الجديد .

(**تجلس كل من چان وبياتريس بجانب زوجها ، ويجلس لويس فى الوسط بين أخويه ، بينما تجلس مرجريت أمامهم جميعا**) .

بياتريس : (**فى جرأتها وخفتها**) ألا تأمرها يا سيدى الملك أن تحدثنا أولا عن مولودها الجديد ؟

لويس : (**تبدو الكراهية فى وجهه**) فيما بعد يا كونتس أنجو . لدينا الآن ما هو أهم . (**لمرجريت**) أو لم يجدوا إلا أحمد هذا ليعهدوا إليه بمرافقتك ؟

مرجريت : أنا يا سيدى التى اخترته واقترحته على حسام الدين .

لويس : (**ساخرا**) من أجل سابق إخلاصه فى خدمتنا ؟ (**فى حرقة**) هذا الجاسوس اللعين .

مرجريت : لا تنس يا سيدى أنه هو الذى أنقذ حياتك فى معركة فارسكور، ولولاه لكنت الآن فى عداد الهالكين.

لويس : كان الهلاك أحب إلىَّ من هذا الهوان.

مرجريت : ثم أنقذ أخيرا حياة زوجتك وطفلك فى دمياط.

لويس : كيف.

مرجريت : كان المهاجمون قد أحدقوا بالقصر الذى أنا فيه، وقتلوا بعض حراسه وهرب الآخرون وتركونى وطفلى، فأيقنت أنى هالكة. وقررت أن أنزل إلى القوم فأقول لهم اقتلونى ولكن أبقوا على هذا الطفل المسكين، فإذا بصوت ينادينى : أيتها الملكة لا تراعى فأنت فى أمان. فأطللت من الشباك فإذا هو أحمد.

لويس : كان إذن يحاربنا هناك مع المحاربين؟

مرجريت : أجل كان من الذين قادوا هذه الحملة، فاستحق أن يقال إنه أنقذ حياتك يا سيدى مرة أخرى.

لويس : (فى حدة) أنقذ حياتى؟ ما هذا اللغو الذى تقولين؟

بواتييه :
أنجو : } (**فى صوت واحد**) كيف يا صاحبة الجلالة؟

مرجريت : إنكم لا تعرفون لماذا كان رجال الحامية يماطلون فى تنفيذ الاتفاق.

لويس : لماذا؟

مرجريت : ريثما تأتيهم الجموع والإمدادات التى يتوقعون وصولها من أوربا، فيعاودون القتال لغزو القاهرة من طريق

الإسكندرية . فقد بعثوا الرسائل سرا وأوفدوا الرسل لهذا الغرض .

أنجو : الخطة التى كنت أنادى بها . الخطة المثلى .

لويس : أجل . أى بأس عليهم فى ذلك ؟ إنهم ليستحقون الثناء منا والإعجاب .

مرجريت : أيستحقون الثناء والإعجاب لأنهم قرروا أن يضحوا بحياتك وحياة أسرتك ؟

لويس : هذا سوء ظن منك .

مرجريت : ليس هذا ظنا يا سيدى بل هو يقين . لطالما راجعت زعماءهم فى هذا الشأن وخوفتهم على حياتك فكانوا يجيبوننى : يا سيدتى كيف نضحى بحملتنا المقدسة من أجل رجل واحد ؟ ولقد بلغ من وقاحتهم أن قالوا لى : ارحلى أنت إلى عكا بطفلك حتى تأمنى الخطر على نفسك وعليه ، ولم يخطر ببالهم أننى لا أستطيع أن أتخلى عنك بأى سبيل .

لويس : من هم الذين قالوا ذلك ؟

مرجريت : كثير ، وفى مقدمتهم فرسان الداوية والاسبتارية .. هؤلاء الذين ما كفاهم أن رفضوا إعطائى شيئا من مالهم للفدية حتى خذّلوا الآخرين عنها وثبّطوهم عن التبرع لها .

بواتييه : الآن اتضح لنا كل شىء . لقد كانوا يلتفون حولك يا سيدى إذ كانوا يطمعون فى المغانم والمكاسب من ورائك . فلما رأوك أسيرا لا حول لك ولا قوة تخلوا عنك ونفضوا أيديهم منك .

لويس : لا ينبغى أن نؤاخذ الآخرين بجريرة جماعة قليلة ذات مذهب خاص .

مرجريت : كلهم يا سيدى على هذا المنوال . أتدرى ماذا فعل البنادقة والجنوية ؟ لقد وجدتهم ينشرون القلاع ليبحروا راجعين إلى بلادهم ، فدعوتهم وأنا أعانى آلام الوضع ، وناشدتهم والدموع فى عينى أن يبقوا إلى أن يتم تنفيذ الصلح حرصا على حياتك . فما استجابوا لدموعى وتوسلاتى إلا بعد ماضمنت لهم أن بقاءهم سيكون على حسابك .

أنجو : لا ينبغى أن نلوم هؤلاء ، فهم تجار قبل كل شىء .

بواتييه : وفرسان المعبد ، أتجار هم أيضا ؟

مرجريت : هؤلاء أسوأ وأوقح . أتدرون ماذا قالوا حين طلبت إليهم أن يسهموا فى مال الفدية ؟

بواتييه : ماذا قالوا ؟

مرجريت : قالوا كيف تعطى أموال المعبد لهؤلاء الكفار وهى إنما جعلت لتصرف على قتالهم ؟ قلت : كيما نفدى بها الملك من أسرهم . قالوا : أليس حسب الملك منا أن أعفيناه من نفقاتنا ، أفيريد منا أن ننفق نحن عليه ؟

لويس : (**محتدا**) قبحهم الله ، فليكن دينا لهم علىَّ .

مرجريت : كيف يأمنونك على دين وفى نيتهم أن يعاودوا القتال ، فهم لا يعلمون ماذا يكون مصيرك ؟

لويس : (**يتجسم الألم فى وجهه**) كأنك يا عزيزتى ما استطعت أن تجمعى شيئا للفدية .

مرجريت : بلى يا سيدى .. استطعت بعد عناء شديد أن أجمع أربعمائة ألف دينار ... نصف الفدية المطلوبة .

لويس : وأين وضعتها ؟

مرجريت : دفعتها لحسام الدين ، ووعدته بدفع الباقى حينما يطلقون سراحك ونعود إلى دمياط .

لويس : كيف تدفعينها وقد نقضوا الاتفاق وهاجموا المدينة ؟

مرجريت : لو لم أفعل لما استطاع حسام الدين أن يقنع المهاجمين بوقف الزحف .

لويس : أفلا تخشين أن يأكلوا المال علينا ويبقونا فى الأسر ؟

مرجريت : كلا يا سيدى ، ليس الغدر من شيمتهم ، ولكنه من شيمتنا نحن .

لويس : هل أخذت عليهم عهدا أن يحترموا الاتفاق الذى بيننا وبينهم كما كان ، دون أى تبديل ولا تعديل ؟

مرجريت : لا يا سيدى . رفض حسام الدين أن يتعهد لى بشىء إلا بعد الرجوع إلى السلطانة شجر الدر .

لويس : فلن تقبل هي الآن بعد ما علمت أن نصف الفدية قد دفع وأن الجزء الأكبر من المدينة قد سقط فى أيديهم . كان عليك ألا تدفعى المال إلا بعد أن تأخذى عليه العهد .

مرجريت : يا سيدى إنى ما تجشمت السفر إلى هنا تاركة طفلى هناك وهوفى حاجة إلى عطفى إلا لأستعطف قلب السلطانة ، لعلها أن تقبل .

بياتريس : لا شك أنها ستقبل . إنها تحبك ، فلن ترفض لك أى طلب .

چان : أجل يا صاحبة الجلالة،.. لا حديث لها معنا فى غيابك إلا عنك وعن طفلك. ترى ماذا سميته ؟

بياتريس : أجل يا أختى نريد أن نعرف اسمه.

مرجريت : سميته چان تريستان.

چان : چان ؟!

مرجريت : چان تريستان.

بياتريس : تريستان .. لقب موسيقى جميل.

چان : چان .. اسم رومانسى حلو !

مرجريت : (**تتجلد**) على اسم چان المعمدان، لأنى استغثت به عند الوضع فتيسر بعد ما تعسر. (**تنظر إلى لويس فتجد وجهه قد تغير واربد**) هل لكم أن تتركونى قليلا مع زوجى الملك فإنى لم ألقه من مدة ؟

بواتييه : نعم نعم.. كان علينا أن ندرك ذلك من تلقاء أنفسنا .. تعالى يا چان. (**يسحب ذراع زوجته فينتحى بها ركنا**).

بياتريس : (**تسحب ذراع زوجها**) تعال يا شارل. (**تنتحى به ركنا**).

مرجريت : كيف حالك يا زوجى الحبيب ؟

لويس : (**فى فتور**) كما ترين.

مرجريت : ألم تشتق إلى حبيبتك ؟ ألم يوحشك غيابها أيام الآحاد ؟

لويس : (**فى غير نية**) بلى.

مرجريت : فما بالى أراك كئيبا كاسف البال ؟

لويس : لهذه الكارثة التى حلت بنا .

مرجريت : لويس ، كن شجاعا وصارحنى بما فى قلبك .

لويس : قد صارحتك بكل ما فى قلبى أمام الجماعة .

مرجريت : إنك لم تسألنى عن طفلك .

لويس : صحيح . سامحينى يا عزيزتى فقد شغلنى الخطب عنه . كيف حاله ؟ كيف حال الطفل ؟

مرجريت : لويس ، إنك تشك فيه ، هذا واضح .

لويس : نعم . وأنت التى أثرت فىَّ الشك إذ سميته جان .

مرجريت : على اسم چان المعمدان لما استغثت به ساعة الـ ...

لويس : (مقاطعا) ألم تجدى فى القديسين والقديسات غير چان المعمدان ؟

مرجريت : هذا الذى حضرنى اسمه ساعتها من دونهم .

لويس : هذا مما يؤيد الشك .

مرجريت : يا سيدى إنك لا تعرف چان دى بوا ، فقد أعمتك الغيرة عن حقيقته . لقد كان فارسا شهما طاهر الذيل نبيل العاطفة . وما كان ليقبل تدنيسى ولو طلبت منه ذلك .

لويس : (فى تهكم مر) أجل أجل ، ولهذا أسمعك تتغزلين فيه حتى اليوم ، ومن يدرى لعلك تناغين به طفلك فى مهده !

مرجريت : (تنشج باكية) سامحك الله يا لويس ، أبعد كل هذا الذى قدمته فى سبيلك تتهمنى ظلما فى أعز ما أملك ؟ والله لولا خوفى على مستقبل ابنك الصغير لرجوتك أن تطلقنى

لتتزوج بعدى امرأة شريفة لا تخونك ولا تنسب أبناء غيرك إليك.

(**تنخرط فى البكاء**).

لويس : (**يربت على كتفها مواسيا**) مرجريت.. لا تبكى يا عزيزتى.. أنا.

مرجريت : (**تنحى يده عنها**) دعنى، دعنى، لا أريد عطفك هذا الزائف.

لويس : (**فى رقة واستعطاف صادقين**) مرجريت، سامحينى يا مرجريت. أنا رجل بائس كما تعلمين (**يخالط صوته البكاء**) وسأبقى بائسا ما بقى اسم قشتالة يتردد فى الوجود. تعرفين كل ذلك يا مرجريت. فبالله عليك ألا ما أرحت قلبى.

مرجريت : (**بين العطف والاستياء منه**) كيف أريح قلبك؟ ماذا أفعل؟

لويس : لا تخافى الآن منى، فقد أصبحت مدينا لك بحياتى وحريتى وكل شيء. ثقى يا حبيبتى أننى لن ألومك بعد اليوم، ولن أؤاخذك بشيء، ولن أذيع الحقيقة على الناس، ولن أتبرأ من الطفل، بل سأعتبره ابنا شرعيا لى وأعامله كغيره من أولادى دون فرق. ولكنى أريد أن أعرف فقط. لا أريد أن يعذبنى الشك طول حياتى. إن فى اليقين لراحة للقلب ولو كان شديد الإيلام له. أتوسل إليك يا مرجريت.. أتوسل إليك (**يبكى**).

مرجريت : لولا أنك فى حاجة إلى عطفى الآن وقد تخلى عنك جميع

الناس لعاقبتك بما تستحق .

لويس : عاقبيني بما تشائين يا مرجريت ، ولكن صرحي لى بالحقيقة . أريد الحقيقة مهما تكن .

مرجريت : لكن كيف أجعلك تصدقنى ؟ أأحلف لك يا لويس ؟ فقل لى بم أحلف لك ؟

لويس : احلفى لى بكرامة السيد المسيح وطهارة مريم العذراء .

مرجريت : (فى خشوع) أحلف بكرامة السيد المسيح وطهارة مريم العذراء وحرمة القديسين والقديسات جميعا أن الولد لمن صلبك أنت ، وما مسنى بشر قبلك ولا بعدك . وإلا فلينزل الله على رأسى صاعقة من السماء تطوينى الساعة ، وترمينى فى قعر جهنم ! (تبكى) .

لويس : (يبكى فرحا) الحمد لله ، الحمد لله الآن اطمأن قلبى . (يوسعها تقبيلا فى كل موضع من جسمها) اغفرى لى يا مرجريت فأنت خير من أمي . الحمد لله . لا أبالى الآن بشيء ولو قتلونى ، ولو أبقونى طول الحياة فى الأسر .

مرجريت : (تقبله فرحة) بل ستعيش طويلا يا حبيبى ، وتخرج من أسرك فى عز وكرامة .

لويس : (يتمتم) چان تريستان . أجميل هو يا مرجريت ؟

مرجريت : جدا يا حبيبى .

لويس : صِفيه لى .

مرجريت : إنه صورة منك .

لويس : (ضاحكا فى سذاجة) صورة منى ؟ تبا له : ألم يأخذ شيئا

من حسنك وملاحتك؟

مرجريت : (**تنهض**) سأصفه لك فيما بعد. دعنى الآن أدخل إلى السلطانة فإنها تنتظرنى.

لويس : (**ينادى الآخرين**) تعالوا يا جماعة. إنها ستدخل عند السلطانة لتكلمها فى الأمر. (**يدنو الآخرون منها وعلى وجوههم بعض الكآبة والقلق**).

مرجريت : أجل رأيت أن أدخل إليها لأكلمها وحدى، لعل هذا أفضل.

لويس : ويلكم ما بالكم مكتئبين؟

أنجو : لا شىء يا سيدى.. نخشى على الملكة أن ترفض السلطانة طلبها. أو تملى عليها شروطا قاسية.

مرجريت : اطمئنوا من هذه الناحية. (**تتوجه نحو الباب الأول**).

لويس : اطمئنوا جدا. (**يتبع زوجته نحو الباب**) تلطفى معها يا عزيزتى .. واشرحى لها .. لا لا لست فى حاجة إلى توصية. قد فوضت الأمر إليك فاتفقى معها كما تشائين. لن أعترض على شىء.

مرجريت : (**عند الباب**) إن شاء الله. (**تخرج**).

لويس : إن شاء الله. (**ينضم فرحا إلى الآخرين**) ألم تسمعوا النبأ العظيم؟

بياتريس :
بواتييه : } ما هو يا سيدى؟

لويس : إنه صورة منى.

چان : من هو يا سيدى؟

لويس : (**كالمغضب**) من هو؟ ابنى چان تريستان!

چان : معذرة يا سيدى، إنه إذن طفل جميل. ليتها سمته لويس الصغير.

لويس : لويس الصغير؟ كلا! چان تريستان لتخليد هذه الذكرى .. ذكرى آلامنا وأحزاننا فى هذه الحملة المقدسة. (**فى لهجة تقريع**) إنه يا كونتس بواتييه رمز كالصليب إن كنت تجهلين.

چان : (**تخفض بصرها خجلا**) صدقت يا سيدى .. رمز كالصليب!

لويس : (**فى خشوع**) فلنصل الآن لأبينا الذى فى السماء. (**يصطفون حوله فى وقار**) ليحفظ لنا أمير الغال چان تريستان وينبته نباتا حسنا ويباركه. (**يرسم علامة الصليب**) باسم الآب والابن والروح القدس.

الجميع : (**يرسمون علامة الصليب**) باسم الآب والابن والروح القدس.

(يمضون فى صلاتهم مبتهلين خاشعين)

(تدخل شجر الدر ومرجريت وخلفهما الأمراء الثلاثة. وتتوجه شجر الدر نحو أريكتها فيقبل لويس ومن معه نحوها).

شجر الدر : لعلكم كنتم تصلون من أجل السلام.

لويس : (**متطلق الوجه**) أجل يا مولاتى السلطانة من أجل

السلام ، ومن أجل ابنى العزيز چان تريستان . (**يبتسم لمرجريت فتبتسم له**) .

شجر الدر : (**تجلس**) إذن فقد استجاب الله لكم فيما دعوتموه . (**تومئ لهم بالجلوس فيجلسون**) إنى قد قبلت رجاءكم فى إمضاء الاتفاق كما هو دون تغيير ولا تبديل . وغدا سترحلون إلى دمياط لتتفقوا مع نائبنا حسام الدين على ما يلزم .

الفرنج : (**فى فرح وابتهاج**) شكرا أيتها السلطانة العظيمة .

شجر الدر : الفضل فى ذلك لصديقتى العزيزة الملكة مرجريت .

مرجريت : نحن جميعا عاجزون عن شكرك ، ولكن ثقى أيتها السلطانة العظيمة أننى سأكون لسان صدق لكم فى أهل بلاد الغرب ، حتى لا تحدثهم أنفسهم بغزو بلادكم العظيمة مرة أخرى .

شجر الدر : (**فى ابتسام ومودة**) يا عزيزتى الملكة . إن عادوا فنحن لهم بالمرصاد . وهذا شاعرنا ابن مطروح يقول فى هذا الشأن :

وقل لهم إن أزمعوا عودة
لأخذ ثأر أو لفعل قبيح
دار ابن لقمان على حالها
والقيد باق والطواشى صبيح

(**يضحك الجميع ما عدا أنجو ففى وجهه كآبة**) .

لويس : (**يقهقه ضاحكا ويضرب بيده على منكب أنجو**) دار ابن لقمان . ها ها ها ها . الطواشى صبيح . ها ها ها .

شجر الدر : لا تخف يا كونت أنجو . لن تعودوا إلى دار ابن لقمان ولا إلى الطواشي صبيح . ستقيمون جميعا هنا فى القصر حتى يحين رحيلكم . جمال الدين ، أنزل الملك وحاشيته فى حجرات القاعة الوسطى ، ومر بأن تهيأ لهم جميعا وسائل الراحة .

جمال الدين : سمعا يا مولاتى السلطانة . (**تومئ للويس وحاشيته**) تفضلوا أيها السادة . (**يتقدمهم نحو الباب الأول فيخرجون خلفه**) .

أقطاى : والله يا مولاتى إنهم لا يستحقون هذه المعاملة .

أيبك : أجل يا مولاتى . كان فى وسعنا اليوم أن نتحكم فيهم .

شجر الدر : لا بأس أن يكون لنا الفضل عليهم . والمثل العربى يقول : إذا ملكت فأسْجِح ، وستسبقوهم أنتم بالعساكر حتى تضمنوا أنهم لا يغدرون .

(**يستأذنون أقطاى وأيبك فيخرجان من الباب الثانى**)

(**يدخل أحمد وناعسة على استحياء**) .

شجر الدر : (**باسمة**) هيه ماذا فعلتما ؟ هل اتفقتما على تعيين موعد الزفاف ؟

أحمد : نعم يا مولاتى .. ثانى يوم بعد رحيل الصليبيين من دمياط .

شجر الدر : جميل . وأين جوهر وسلافة ؟

ناعسة : هما يا ستى فى فناء القصر مما يلى البحر .

شجر الدر : (**ضاحكة**) ماذا يصنعان ؟ يصطادان السمك ؟

أحمد : يتناجيان يا مولاتى ويتبادلان الأحلام فى ظل نعمتك .

شجر الدر : اذهب الآن يا أحمد إلى سيف الدين قطز ، فبشره بأننى

قد وافقت على زواجه من جاريتى جلنار .

أحمد : (**فى شىء من الدهش**) جلنار !

ناعسة : ماذا بك يا أحمد ؟ ألا تعرف أنه يحبها ؟

أحمد : لا والله ما أخبرنى ولا عندى علم .

شجر الدر : (**فى إعجاب**) صاحبك كتوم السر .

ناعسة : (**فى دلال**) وليس مثلك . حدثت الدنيا كلها .

شجر الدر : هيا اذهب فقل له إن عرسكم أنتم الثلاثة سيكون فى يوم واحد .

أحمد : والله لآخذن منه البشارة . (**ينطلق خارجا من الباب الثانى**) .

شجر الدر : وأنت يا ناعسة ادخلى إلى جلنار فبشريها .

ناعسة : حالا يا ستى لآخذ منها البشارة أيضا . (**تخرج من الباب الأول**) .

شجر الدر : الحمد لله . هؤلاء الأبطال الثلاثة سيكونون صنائعى وأعوانى .

(**تقوم من أريكتها فتنظر فى المقاعد حتى تجذب واحدا منها فتضعه حيث كان فخر الدين جالسا عليه ليلة قابلته آخر مرة ، فتسويه فى رقة وحنان ، وتتنهد وهى تتمتم**) آه لو عاش إلى اليوم ذلك البطل العظيم ! واها عليك يا فخر الدين ! كلما جادت الأيام علينا بنصر ذكرناك فأثارت شجوننا ذكراك . (**تغيم عيناها بالدمع وترفع بصرها إلى السماء**) يا إلٰهى ما ضر لو عاش حتى يرى اليوم ثمرة

جهاده فى نصرة دينك وإعلاء كلمتك ، إذن يا ربى لجلس مكانى على هذا الكرسى رجل عربى قوى أمين ، يوحّد كلمة العرب والمسلمين ، ويصون بلادهم من طمع الطامعين ، ويحيى ما أمات الحكام من نظام الإسلام ، وينشر العدل والطمأنينة والسلام .

(ستار الختام)

رقم الإيداع ٧٧/٢٦٢٦
الترقيم الدولى ٧ — ١٣٠ — ٣١٦ — ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

الثمن ٣٧٥ قرشا

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه